
مجلة البيان – العدد 58 ، جمادى الآخرة 1413هـ / ديسمبر 1992م

كلمة صغيرة

من الأماني التي تراودنا أن يسد ما ينشر فى مجلة البيان ثغرة في ثقافة الفرد المسلم في هذا العصر ، وأن تلبي الموضوعات حاجـات المسلمين على اختلاف مستوياتهم. ونعمل جاهدين على إخراج هذه الأماني إلى مجال التطـبـيـق والواقع. ولكننا نرى أيضاً أن عجزنا البشري والظروف المحيطة بنا قد تعيقنا عن ذلك. ونحب مـن قـراء الـبـيـان أن يضعوا في حسابهم هذه الناحية عندما يكتبون لنا ، وهي أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال: ما مدى أهمية ما أكتب؟ وهل عندي فكرة جديدة أقدمها للقراء، أو طـريـقـة جديدة للاستفادة والإفادة في مجالات الثقافة الإسلامية؟ وليكن القارئ هو الهدف من الكـتابة ، وليس نفس الكاتب أو إرضاء حاجة من حاجات النفس أو تطلعاتها. وبذلك يكون للكتابة معنى و ثمرة.

المحرر

الافتتاحية

الزلزال

كثرت الزلازل في هذا العصر ، وهــذا تأكيد وتصديق لما جاء في الحديث : »لا تقوم الساعة حتى يقبض العالم وتكثر الزلازل...)(1)، والحـديث عن الزلازل لا بد أن يقودنا إلى الحديث عن إحساس المسلم تجاه هذه الظواهر الكونيـة التي يخوِّف الله بها عباده ، أو عقوبات لما تعج به الأرض من المحادة لله ورسوله ، ومن الموبقات المهلكات ، لقد تبلَّد شعور كثير من الناس تجاه هذه الظواهر فلا يرتدعون ، ولا يتراجعون حتى يروا العذاب الأليم ، والأصل في المؤمن أن يكون مرهف الحساسية لمثل هذه الأمور المخيفة ، فقد جاء في الحديث: »كانت الـريـح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- «(2)، وكـأنــه يخشى -صلى الله عليه وسلم- أن تكون مقدمات يوم الفزع الأكبر.

إن الزلزال الذي وقع في مصر هذه الأيام كان مفاجئاً لم يتوقعه أصحاب الاختصاص في علم باطــن الأرض، فـلـم يـعـرف عن مصر أنها بلد زلازل كما في بعض البلدان الأخرى ، وما ذلك إلا دليل على أنه من المنذرات حتى تعود هذه الأمة - وليس شعب مصر فقط - حتى تعود إلى باريها ، وتستغفـره من ذنوبها ، ويرجع لها الإحساس بما هي عليه من الضعف والانحطاط في كل

شيء، ممـا جعلها في مؤخرة الأمم ، قال تعالى : ((فَلَوْلا إذْ جَاءهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُـمْ وزَيَّنَ لَـهُـمُ الشَّـيْـطَـانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) [الأنعام:43] ، وقال تعالى: ((ونُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً))[الإسراء: 60] ، وقال تعالى : ((أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِـنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وهُمْ يَلْعَبُونَ)) [الأعراف:97-98]. إن في الشعوب الإسلامية من يعتبر بهذه الآيات الـكـونـيـة، ويتذكر ويؤوب، أما الذين في قلوبهم مرض ، وأما القاسية قلوبهم الذين استمرؤوا الطغيان، والـذيـن أشربوا في قلوبهم التغريب والعلمانية فسوف لن يعتبروا بل يزيدهم ضلالاً ، وهذا ما كنا نتوقعه من أمثال هؤلاء لأنه من السنن الربانية.

ولكن الذي فوجئنا به مقابلتهم هذه الآيات التخويفية بإعلان الحرب على الإسلام ، حرباً صريحة مكشوفة لا مواربة فيها ولا خجل،فقد نشرت إحدى الصحف اليومية في صفحتها الأولى : »القمة المغاربية تقرر التنسيق في مواجهة الظاهرة الأصولية« وبدأت الحملة على ما يسـمـونه (التطرف والأصولية) تشتد أكثر من ذي قبل، ويصرح رئيس منظمة الـتـحـريــر الفلسطينية بأنه يجب أن يقضي على منظمة »حماس« الإسلامية.

لقد ظهر المخبوء ، وتبين أن الزلزال الذي يخافونه ليس هو الزلزال الكوني ، فهذا يمكن تعليله عندهم بأي تفسير جيولوجي، ولـكـنـه الـزلـزال الإسلامي ، فهي إذن الحرب على الإسلام وليست على الأصولية كما يزعمون، فهل يا ترى يقدر هؤلاء على حرب الإسلام ، وهل يتوهمون أن بإمكانهم القضاء على الإسلام؟!

ألـم يجرب غيرهم هذا الطريق ، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر عدداً وعدة ففشلوا ورجع الإسلام قـويـاً بحـمـد الله ، وهل استطاع الروس الشيوعيون بخيلهم ورجلهم القضاء على الإسلام في بخارى وسمرقند؟ إن الناس في كل مكان يعودون إلى الله أفواجاً فكيف يتصور هؤلاء الصغار أن بمقدورهم الحد من انتشار الإسلام.

إن الـمـرء ليشفق على هؤلاء - وإن كانوا لا يستحقون الشفقة - وهو يراهم في تدبـيـرهـم، وعقولهم الصغيرة ، يتداولون الرأي بالنيابة عن غيرهم للحد من (الأصولية) وكل هذا لقاء ثمن بخس ، باعوا به دينهم ودنياهم.

وإذا كــان الـمسلمون قد أخطأوا ويخطئون في بعض أساليب الدعوة إلى الله ، أو في فهمهم الإسلام وتطبيقـاتـه فـي الـعـصـر الحديث ، وخاصة في بعض البلدان ؛ فهل هذه الأخطاء مسوَّغ كافٍ لضرب الإسلام. وإذا كـانـوا يحـاربـون العنف كما يدعون ، فلماذا يشجعون التيارات العلمانية والإلحادية وكل عدو للإسلام؟ ولماذا يشجعون كل أنواع المحرمات مثل الربا والزنا والخمر؟ وإذا كانوا يحاربون التطرف فقط فلماذا لا يطبقون الاعتدال؟

ليعلم هؤلاء أن الإسلام قوي - والحمد لله - رغم ما يكاد له من هنا وهناك ، ألم يأتهم نبأ الجمـهـوريـات الإسلامية التي تشكل ثقلاً كبيراً سواء من حيث عدد السكان أو المساحة أو القوة الاقـتـصـادية ، وقد بدأت شعوبها ترجع إلى دينها ، فهل سيحاربون هذه الشعوب أيضاً نيابة عـن الـغـرب؟ وهل سيحاربون الصحوة الإسلامية في ماليزيا وأندونيسيا ، وفي شتى بقاع الأرض؟ إن الأمر ليد الله ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، والأمر أكبر مما يتصورون.

وشيء آخر ، فهم يقولون إن إيران لها أطماع ، وهي تحرض من يقع في أحابيلها ، ونحن نعلم أن إيران لها أطماع فعلاً ، ونعلم خطورة هذه الأطماع ، ولكن هل تُحد بمحاربة الله ورسـولـه وضرب العمل الإسلامي ، وتشريد الشباب الإسلامي ؛ أم أنها تواجه بالإسلام الحقيقي؟!

إن مـا ينفقونه لمحاربة الإسلام سيكون حسرة عليهم وندامة وخزياً في الدنيا قبل الآخرة ، والعاقبة للمتقين.

رئيس التحرير

1- فتح الباري 2/521.

2- فتح الباري 2/ 520.

منزلة الحكم
بما أنزل الله من الدين

عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

لا شك أن تنحية شرع الله تعالـى، وعــدم الـتـحـاكم إليه في شؤون الحياة من أخطر وأبرز مظاهر الانحراف في مجتمعات المسلمين ، ولقد كانت عـواقـب الحكم بغـير ما أنزل الله في بلاد المسلمين ما حلَّ بهم من أنواع الفساد وصنوف الظلم والــذل والـمـحـق. ونظراً لأهمية وخطورة هذه المسألة من جانب ، وكثرة اللبس فيها من جانب آخر ، فسيكون موضوع هذه المقالة عن منزلة الحكم بما أنزل الله من الدين ، وضرورة التحاكم إلى شرع الله.

فـرض الله تعالـى الـحـكـم بشريعته ، وأوجب ذلك على عباده ، وجعله الغاية من تنزيل الكتاب. فقال سبحانه: ((وأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)) [البقرة:213] ، وقـال تعالى: ((إنَّا أنزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)) [النساء:105].

وبيّن سبحانه اختصاصــه وتفــرده بالحكم ، فقال تعالى : ((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ))[الأنعام:57] ، وقال سبحانه : ((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ)) [يوسف:40] ، وقــال عـز وجل: ((لَهُ الحَمْدُ فِي

الأُولَى والآخِرَةِ ولَهُ الحُكْمُ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) [القصص:70] ، وقال سبحانه : ((ومَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلَى اللَّهِ)) [الشورى:10].
وجـاءت الآيـات القـرآنـيـة مـؤكـدة على أن الحكم بما أنزل الله من صفات المؤمنين ، وأن التحاكم إلى غير ما أنزل الله (وهــو حكم الطاغوت والجاهلية) من صفات المنافقين.
قال سبحانه : ((ويَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالرَّسُولِ وأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ومَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وإذَا دُعُوا إلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وإن يَكُن لَّهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ورَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُـونَ * إنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا وأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)) [النور:47-51].
وقال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا أَطِـيـعُـوا اللَّهَ وأَطِـيـعُـوا الـرَّسُـولَ وأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ والْيَوْمِ الآخِـرِ ذَلِـكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ ومَا أُنزِلَ مِـن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إلَى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وإلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُـدُّونَ عَنكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إنْ أَرَدْنَا إلاَّ إحْسَاناً وتَوْفِيقاً)) [النساء 59- 62].
يقــول ابن تيمـيـة عـن هذه الآيات : »ذم الله عز وجل المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كـمـا يصـيـب ذلك كـثـيـراً ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غـيـرهم ، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك (1) وغيرهم، وإذا قـيـل لـهـم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً ، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات ، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم، قـالــوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقـلـيـة التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات«(2).
ويقول أيضا: »ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا تسليماً(3).
ويقول محمد رشيد رضا عند تفسيره لقوله تعالى: ((وإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ ...)) الآية: »والآية ناطقة بأن من صد وأعرض عن حـكـم الله

ورسوله عمداً ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعمد بما يزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام«(4).

ويمكن أن نحدد أهمية إفراد الله تعالى بالحكم، وبيان منزلة الحكم بما أنزل الله من خلال العناصر التالية:

1- منزلته من توحيد العبادة :

إن الحكم بما أنزل الله تعالى وحده هو إفراد الله تعالى بالطاعة ، والطاعة نوع من أنواع العبادة ، فلا تصرف إلا لله وحده لا شريك له ، قال تعالى : ((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ)) [يوسف:40] ، وقال سبحانه: ((وهُوَ اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى والآخِرَةِ ولَهُ الحُكْمُ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) [القصص:70] ، فعبادة الله تعالى تقتضي إفراده عز وجل بالتحليل والتحريم ، حيث قال سبحانه: ((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً لاَّ إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [التوبة:31].

وتحقيق هذه الطاعة ، وإفراد الله تعالى بالحكم والانقياد لشرعه هو حقيقة الإسلام ، وكما قال ابن تيمية: »فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته ، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده ، وطاعته دونه«(5).

ويقول ابن القيم : »وأما الرضا بدينه، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى ، رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه ، أو هواه، أو قول مقلده وشيخه وطائفته«(6).

وفي المقابل فإن من أشرك مع الله في حكمه، فهو كالمشرك في عبادته، لا فرق بينهما ، كما قال الشنقيطي: »الإشراك بالله في حكمه ، والإشراك في عبادته كلها بمعنى واحد ، لا فرق بينهما البتة ، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله ، وتشريعاً غير تشريع الله، كالذي يعبد الصنم ويسجد للوثن، لا فرق بينهما البتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، وكلاهما مشرك بالله(7)«.

ويقول أيضاً: »ويفهم من هذه الآية ((ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ...)) أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله ، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر ، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله ((ولا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وإنَّهُ لَفِسْقٌ وإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)) فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم ، وهذا الإشراك في الطاعة ، واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى ، هو المراد بعبارة الشيطان في قوله تعالى : ((أَلَمْ أَعْهَدْ إلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

* وأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ))، وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم : ((يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً))(8).
وتحقيقاً لوحدة العبادة القائم على نفي الإلهية عما سوى الله تعالى ، وإثباتها لله تعالى وحده ، فإنه يجب الكفر بالطاغوت ، كما قال تعالى: ((فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا)) [البقرة : 256] .
وقد سمى الله تعالى الحكم بغير شرعه طاغوتاً ، حيث قال تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ ومَا أنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إلَى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً)) [النساء:60]، والطاغوت عام ، فكل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله ، فهو طاغوت(9).

2- منزلته من التوحيد العلمي الخبري :

الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية ؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه ، ولهذا سمى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أرباباً لمتبعيهم ، فقال سبحانه : ((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً لاَّ إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [التوبة :31](10).
وكما يقول محمد رشيد رضا - في بيان معنى الشرك في الربوبية -: »هو إسناد الخلق والتدبير إلى غير الله تعالى معه ، أو أن تؤخذ أحكام الدين في عبادة الله تعالى والتحليل والتحريم عن غيره ، أي غير كتابه ووحيه الذي بلغه عن رسله(11).
ويقول ابن حزم - عن قوله تعالى: ((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ...)) الآية -:
» لما كان اليهود والنصارى يحرمون ما حرم أحبارهم ورهبانهم ، ويحلون ما أحلوا ، كانت هذه ربوبية صحيحة ، وعبادة صحيحة ، قد دانوا بها ، وسمى الله تعالى هذا العمل اتخاذ أرباب من دون الله وعبادة ، وهذا هو الشرك بلا خلاف«(12).
ويقول ابن تيمية - في هذا الشأن -:
»قد قال تعالى : ((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً لاَّ إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) .
وفي حديث عدي بن حاتم - وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما - وكان قد قدم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو نصراني ، فسمعه يقرأ هذه الآية ، قال : فقلت له : إنا لسنا نعبدهم ، قال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال فقلت : بلى ، قال : فتلك عبادتهم ، وكذلك قال أبو البختري : أما إنهم لم يصلوا لهم ، ولو

أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الأمة حرامه ، وحرامه حلاله ، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية...
فقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، لا أنهم صلوا لهم ، وصاموا لهم ، ودعوهم من دون الله ، فهذه عبادة الرجال ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله : ((لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ))(13). كما أن حقيقة الرضا بالله رباً توجب إفراد الله تعالى بالحكم،واختصاصه تعالى بالخلق لأمر، حيث قال سبحانه :((أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ)) [الأعراف:54]، وقال سبحانه : ((قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)) آل عمران: 154]، فالأمر كله لله تعالى وحده ، سواءً كان. هذا الأمر أمراً كونياً قدرياً ، أو شرعياً دينياً(14).
يقول العز بن عبد السلام : »وتفرد الإله بالطاعة لاختصاصه بنعم الإنشاء والإبقاء والتغذية والإصلاح الديني والدنيوي ، فما من خير إلا هو جالبه ، وما من ضير إلا هو سالبه.. وكذلك لا حكم إلاّ له«(15).
ويقول عبد الرحمن السعدي : »فإن الرب ، والإله هو الذي له الحكم القدري ، والحكم الشرعي ، والحكم الجزائي ، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له ، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته«(16).
إضافة إلى ذلك ، فإن »الحكم« من أسماء الله تعالى الحسنى ، فقد قال -صلى الله عليه وسلم- :إن الله هو الحَكَم وإليه الحكم«(17).
وقال تعالى : ((أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً)) [الأنعام:114]، وقال سبحانه: ((فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ)) [الأعراف:87] ، وقال عز وجل: ((أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ)) [التين:8].
وإن الإيمان بهذا الاسم يوجب التحاكم إلى شرع الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ((ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً))[الكهف:26] ، وقال سبحانه : ((ومَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلَى اللَّهِ)) [الشورى:10].
وقد بين الله تعالى - في آيات كثيرة - صفات من يستحق أن يكون الحكم له.. وكما قال الشنقيطي مبيناً ذلك : »فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع ، قوله تعالى: ((ومَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلَى اللَّهِ))، ثم قال مبيناً صفات من له الحكم: ((ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ومِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ويَقْدِرُ إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [الشورى:10-12].
فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية ، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور ، ويتوكل عليه ، وأنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومخترعهما ، على غير مثال سابق ، وأنه هو الذي خلق

للبشر أزواجاً..؟ فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم ، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل.
ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ((لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن ولِيٍّ ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)) [الكهف:26]، فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد؟ وأن كل شيء هالك إلا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون إليه؟ تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أخس خلقه بصفاته.
ومنها قوله تعالى: ((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ))، فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق ، وأنه خير الفاصلين؟
ومنها قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)) [يونس:59]، فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي ينزل الرزق للخلائق ، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا بإذنه ، لأن من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له التصرف فيه بالتحليل والتحريم؟ سبحانه جل وعلا أن يكون له شريك في التحليل والتحريم«(18).

3 - منزلته من توحيد الاتِّباع :

والمقصود بتوحيد الاتباع تحقيق المتابعة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتوحيد الاتِّباع هو توحيد الرسول بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان(19) ، وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن الحكم بما أنزل الله هو توحيد الاتِّباع.
قال الله تعالى: ((فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)) [النساء:65].
يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : »يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّم الرسول -صلى الله عليه وسلم- في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً«(20).
ويقول ابن القيم عن هذه الآية: »أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع ، وأحكام الشرع وأحكام المعاد ، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح ، وتقبله كل القبول ، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض..«(21).
كما أن الحكم بما أنزل الله هو تحقيق للرضى بمحمد -صلى الله عليه وسلم- رسولاً ونبياً ، ولذا يقول ابن القيم : »وأما الرضى بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولى به من نفسه ، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضى

بحكم غيره البتة ، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه ، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره ، ولا يرضى إلا بحكمه«(22).
بل إن الحكم بما أنزل الله تعالى هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، وكما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : »ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى وزجر ، وأن لا يعبد إلا بما شرع«(23).
ولذا يقرر الشيخ محمد بن إبراهيم أن تحكيم شرع الله تعالى وحده هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله بقوله : »وتحكيم الشرع وحده دون كل ما سواه شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه ، إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله هو المعبود وحده لا شريك له ، وأن يكون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو المتبّع المحكّم ما جاء به فقط ، ولا جردت سيوف الجهاد إلا من أجل ذلك والقيام به فعلاً وتركاً وتحكيماً عند النزاع«(24).

4- منزلته من الإيمان :

يقول الله تعالى : ((يا أيها الذين امنوا يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)) [النساء:59].
من خلال هذه الآيات الكريمات ندرك منزلة تحكيم شرع الله تعالى من الإيمان ، فلقد عدّ الشارع هذا التحكيم إيماناً كما قال تعالى : ((فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)) [النساء:65] .
يقول ابن حزم : »فسمى الله تعالى تحكيم النبي -صلى الله عليه وسلم- إيماناً ، وأخبر الله تعالى أنه لا إيمان إلا ذلك ، مع أنه لا يوجد في الصدر حرج مما قضى ، فصح يقيناً أن الإيمان عمل وعقد وقول ؛ لأن التحكيم عمل ، ولا يكون إلا مع القول ، ومع عدم الحرج في الصدر وهو عقد«(25).
ويقول ابن تيمية: »فكل من خرج عن سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وشريعته ، فقد أقسم الله بنفسه المقدسة ، أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله في جميع ما شجر بينهم من أمور الدين أو الدنيا ، وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه«(26).
وتحكيم شرع الله ورد النزاع إلى نصوص الوحيين شرط في الإيمان ، كما قال الله تعالى: ((فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ والرَّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)) [النساء:59].
ولذا يقول ابن القيم : »إن قوله ((فَإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ..)) نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين : دِقِّه وجُلِّه ، جليه وخفيه ، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله وبيان حكم ما تنازعوا فيه ، ولم

يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه ، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع. ومنها أن جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه ، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ، ولا سميا التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين ، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر ، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم ، وأن عاقبته أحسن عاقبة«(27).
ويقول ابن كثير: »فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله ، وشهد له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال تعالى : ((إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ)) أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر«(28).
وإذا كان التحاكم إلى شرع الله تعالى شرطاً في الإيمان ، فإن التحاكم إلى غير هذا الشرع - وهو حكم الطاغوت والجاهلية.. - ينافي الإيمان ، وهو من علامات النفاق ، وقد سبق أن أوردنا كلام محمد رشيد رضا حيث يقول عند قوله تعالى : ((أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ يَزْعُمُونَ...)) [النساء:60] : »والآية ناطقة بأن من صد وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً ، ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به ، فإنه يكون منافقاً لا يعتد بما زعمه من الإيمان ، وما يدعيه من الإسلام«(29). ويقول الشيخ السعدي في هذا الصدد: »الرد إلى الكتاب والسنة شرط في الإيمان. فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة ، بل مؤمن بالطاغوت كما جاء في الآية: ((أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ يَزْعُمُونَ...)) الآية ، فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه ، في كل أمر من الأمور ، فمن زعم أنه مؤمن ، واختار حكم الطاغوت على حكم الله ، فهو كاذب في ذلك..«(20).
ومما كتبه الشيخ محمد بن إبراهيم في هذا المقام قوله :
»إن قوله تعالى "يزعمون" تكذيب لهم فيما ادعوه من الإيمان ، فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- مع الإيمان في قلب عبد أصلاً ، بل أحدهما ينافي الآخر ، والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، فكل من حكم بغير ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه«(21).
إضافة إلى ذلك فإن الإيمان قول وعمل ، فهو يتضمن تصديقاً وانقياداً ، فكما يجب على الخلق أن يصدقوا الرسل عليهم السلام فيما أخبروا ، فعليهم أن يطيعوهم فيما أمروا كما قال تعالى : ((ومَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإذْنِ اللَّهِ)) [النساء:64].

ولذا يقول محمد بن نصر المروزي في تعريف الإيمان : »الإيمان بالله : أن توحده ، وتصدق به بالقلب واللسان ، وتخضع له ، ولأمره ، بإعطاء العزم للأداء لما أمره ، مجانباً للاستنكاف ، والاستكبار ، والمعاندة ، فإذا فعلت ذلك لزمت محابه ، واجتنبت مساخطه.
- إلى أن قال : وإيمانك بمحمد -صلى الله عليه وسلم- إقرارك به ، وتصديقك إياه ، واتباعك ما جاء به ، فإذا اتبعت ما جاء به ، أديتَ الفرائض ، وأحللتَ الحلال ، وحرّمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات ، وسارعت في الخيرات«(22).
ولا شك أن تحكيم الشريعة انقياد وخضوع لدين الله تعالى ، وإذا كان كذلك فإن عدم تحكيم هذه الشريعة كفر إباء ورد امتناع ، وإن كان مصدقاً بها ، فالكفر لا يختص بالتكذيب فحسب كما زعمت المرجئة ، يقول ابن تيمية : »فمن الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً إيماناً ثابتاً في قلبه ، بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج ، ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم من رمضان ، ولا يؤدي لله زكاة ، ولا يحج إلى بيته ، فهذا ممتنع ، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة ، لا مع إيمان صحيح ، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار ، كقوله تعالى : ((يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إلَى السُّجُودِ وهُمْ سَالِمُونَ)) [القلم:42-43](23). ويقول ابن عبد البر: »قد أجمع العلماء أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر«(24).
وفي ختام هذا المقال نشير إلى أن تحكيم الشريعة استجابة لله تعالى ، ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-،ففيه الحياة والصلاح والخير، كما قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)) [الأنفال: 24].
يقول الشيخ السعدي : »قوله ((إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)) وصف ملازم ، لكل ما دعا الله ورسوله إليه ، وبيان لفائدته وحكمته ، فإن حياة القلوب والروح ، بعبودية الله تعالى ، ولزوم طاعته ، وطاعة رسوله ، على الدوام«(25)..
وإن رفض هذه الشريعة وعدم الاستجابة لها اتباع للهوى ، فهو ضلال شنيع في الدنيا ، وعذاب شديد في الأخرى، ويقول تعالى: ((فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ومَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)) [القصص: 50]، ويقول سبحانه : ((يَا دَاوُودُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إنَّ الَذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)) [ص:26].
ويقول عز وجل : ((وَمَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ ويَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ولَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ)) [النساء:14] ، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : »أي

لكونه غيّر ما حكم الله به ، وضادّ الله في حكـمـه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم«(26).
ولقد جــاءت نـصـــــــوص الوحيين محذِّرة من التحاكم إلى غير ما أنزل الله تعالى: فقال سبحانه: ((وأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إلَيْكَ فَإن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وإنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)) [المائدة:49].
يقول إسماعيل إبراهيم الأزهري : »فأمر الله عز وجل نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله فيه ، ونهاه عن اتباع أهوائهم لما فيه من مخالفة المنزل إليه وحذره أن يفـتـنـوه فـيـحــولوا بينه وبين بعض ما أنزل عليه ، وأعلمه أنهم إن تولوا عن الحكم الذي أنزله الله إليه فإنما يريد أن يصيبهم ويبتليهم بسبب بعض ذنوبهم. فعلم منه أن التولي عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الأهواء سبب لإصابة الله بالمصائب«(27).
ويحكي ابن القيم شيئاً من عواقب تنحية حكم الله تعالى فقال :
»لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليها، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان، وأقوال الشيوخ، عـــــــرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتى رُبي فيها الصغير ، وهرم عليها الكبير..«(28).
وفـي الحديث عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : »يا معشر المهاجرين : خصال خمس إن ابتليتم بهن، ونزلن بكم - وذكر منها: وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم«(29)، وفي رواية »وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر«(30).
وفي هذا يقول ابن تيمية: »وإذا خرج ولاة الأمر عن هذا [حكم الكتاب والسنة] فقد حكموا بغير ما أنزل الله ، ووقع بأسهم بينهم ، قال -صلى الله عليه وسلم- : »ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم«. وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول كما قد جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره فيسلك مسلك من أيّده الله ونصره ، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه«(31).
وصدق الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ، فإن الناظر إلـى واقــع بلاد المسلمين - الآن - يـرى مـــا وقع في تلك البلاد من المصائب ، وأنواع الفرقة والعداوة بينهم، وكــذا التقاتل والتناحر ، كما ظهر الفقر والتدهور الاقتصادي ، مع أن في بلاد المسلمين - كما هو معلوم - أعظم الثروات وبمختلف الأنواع، وأعـظــم ســبـب فـي ذلك هو تنحية شرع الله والتحاكم إلى الطاغوت والله المستعان.

الهوامش :

1- يقصد التتر.
2 - الفتاوى 12/339-340 ، بتصرف يسير.
3 - الفتاوى 7/37-38 .
4- تفسير المنار 5/227.
5 - الفتاوى 3/ 91 ، وانظر النبوات ص 69- 70.
6- مدارج السالكين 2/118.
7- الحاكمية في تفسير أضواء البيان ، لعبد الرحمن السديس ، وانظر أضواء البيان للشنقيطي 7/162 .
8- أضواء البيان 4/83 و 3/440.
9- انظر أعلام الموقعين 1/49 - 50 ، وانظر رسالة معنى الطاغوت لمحمد بن عبد الوهاب (مجموعة التوحيد) ص 260.
10- انظر المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين 1/33.
11- تفسير المنار 2/55 ، و 3/326.
12- فصل 3/266..
13- الفتاوى 7 / 67.
14- وانظر تحكيم الشريعة لصلاح الصاوي ص 18- 21 ، ورسالة ضوابط التكفير ص 116.
15 - قواعد الأحكام 2/134 -135
16- القول السديد ص 102.
17- رواه أبو داود 4955 ، والنسائي 8/226
18- أضواء البيان 7/173 -168 ، باختصار.
19- انظر شرح العقيدة الطحاوية 1/228.
20- تفسير ابن كثير 3/ 211.
21- البيان في أقسام القرآن ص 270.
22- مدارج السالكين 2/172-173.
23- مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب 1/190 ، وانظر تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله ص 554-555.
24- فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم 12/251 ، (رسالة تحكيم القوانين).
25- الدرة ص 238.
26- الفتاوى 28/471 ، و35/336،407.
27- أعلام الموقعين 1/49-50.
28- تفسير ابن كثير 3/209.
29- تفسير المنار 5/277.
20- تفسير السعدي 2/90 ، باختصار.

21- تعظيم قدر الصلاة 1/392/393.
22- رسالة تحكيم القوانين.
23- الفتاوى 7/611 ، وانظر كتاب الصلاة لابن القيّم ص 54.
24 - التمهيد 4 /226.
25- تفسير السعدي 3/156.
26 - عمدة التفسير 3/125.
27- تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن ص40 ، وانظر ص 22.
28- الفوائد ص 42 -43.
29-رواه البيهقي وصححه الألباني ، انظر صحيح الترغيب والترهيب 1/321.
30- رواه الطبراني فى الكبير وحسنّه الألباني ، انظر صحيح الترغيب والترهيب 1/321.
31- الفتاوى 35/387.

دعوة

الأطباء والدعوة الإسلامية

د. حسن علي الزهراني

لا شك أن العاقل البصير - أيا كان تخصصه أو موقـعه - يعلم بأن العمر قصير ، والأنفاس معدودة ، والموت قد يأتي بغتة ، والأطباء - بصفة خاصـة - أكـثـر الـنـاس معايشة لهذه المفاهيم ، لأنهم يحسون بها كل يوم ، بل في اليوم أكثر من مرة أحياناً.. يشاهدون لحظات الموت حية أمام نواظرهم.. يتابعون الاحتضار لحظة بلحظة.. كما أنهم يعايشـون أحاسيس أهل المريض عند موته ، لذا كان من الطبيعي أن يكونوا أكثر معرفة بالله وخوفـاً منه ، إن قورنوا بعامة الناس ، ولكن - للأسف الشديد - فإن القليل منهم في هذا الزمان يعي أهمية دوره كطبيب في الدعوة إلى الله. وهذه العجالة ليس القصد منها تنبيه أولئك الغافلين الذين يحتاجون إلى النصح والوعظ المدروس الذي قد يستنفد جهداً كبيراً ؛ ولكنها موجـهـة إلى أصـحـاب الـوجـوه النيرة ، ممن أحبوا الله ورسوله ، فظهر ذلك على مظهرهم وسمتهم ، رسالتي إليهم تتلـخـص في مجموعة أسئلة وملاحظات أحب منهم أن يقفوا عندها بتجرد وإخلاص، ويراجعوا أنفـسهم، لعل الله يحقـق لـنـا مـا نـصـبـو إليه من عز الدنيا وثواب الآخرة ، خاصة وأنهم يقضون أكثر من 70% من وقتهم داخل أروقـة المستشفيات.

ماذا قدم الطبيب لنفسه...

وأقـصـد بهذا دعوة الطبيب نفسه. ونفوس الأطباء من أيسر النفوس لتقبل الدعوة ، كما هو مشاهد فـي كـلـيـات الطب من كثرة الصالحين عند مقارنته على سبيل المثال بكليات أخرى مثل الآداب أو الاقـتصاد أو غيرها ، فالطب وعلومه يدعو إلى التأمل في خلق الإنسان: مـرضـه وصـحـتـه، حياته موته.. كما أنهم - أي الأطباء - أعلم الـنـاس بـقـدرة الله عـلـى تـحـريـك أي خـلـيـة تسبب مرضاً سرطانياً، أو انقباضاً شريانياً يودي بحياة الإنسان، أو فيروساً يضع المريض في موقف القائل :

وحسب المنايا أن يكن أمانيا كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً

ومع ذلك لا بد من تذكيرهم بالأمور التالية:

1- الإخلاص وابتغاء ما عند الله :

ففـتـن الطب كثيرة.. من مركز ، وجاه ، وعجب ، وطلب الثناء من الناس ، لا يعصم من ذلك كله إلا مراقبة الله ، وطلب ما عنده من الثواب ((والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى)).

2- الزهد في الدنيا بمفهومه الصحيح :

وهو أن يستوي عند الطبيب بقاؤه في منصبه أو وظيفته وعدمه إن تعارضت مع طاعة الله.

3- المحافظة على الفرائض :

وهي أقل الزاد وأعظمه ، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي : »وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه« ، ولا يعذر الإنسان في التقصير في تلك الفرائض مهما كانت انشغالاته.

4 - المحافظة على النوافل والأذكار وقراءة القرآن ، وكل

ما يبعث فـي الـنـفـس الحماس والنشاط للعبادة ، وكل إنسان أدرى بنفسه.

5- استشعار نعمة الله وواجب شكرها :

وبالذات فيما يتعلق بنعمة الصحة خاصة عندما يشاهد الطبيب الأمراض الفتاكة والحالات المستعصية كقول : »الحمد لله للذي عافاني مما ابتلاك به ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً« أو كما قال -صلى الله عليه وسلم- .

دعوة الطبيب لزملائه :

وهي مـن أوجـب الواجبات لقول النبي : »الدين النصيحة« وهم أولى الناس بها لأنهم زملاء العمل ورفاق الـمـهـنـة ، يـعـيـش الإنسان بينهم أكثر مما يعيش مع أهله أو أقاربه ، ومن الغريب أن تجد بعض الصالحـيـن مـن الأطـبـاء شـعـلـة من النشاط مع عامة الناس خارج المستشفى وفي ذات الوقت ليس عندهم ما يقدمونه داخـل المستشفى، فـتـظـهـر الازدواجية بكل معانيها وما يترتب عليها من سلبيات.

كـمـا أن فـي دعـوة هؤلاء الزملاء إقامة للحجة ، كما قال الله عز وجل : ((وإذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَـوْمـاً الـلَّـهُ مُـهْـلِـكُـهُـمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَـذَابــاً شَـدِيـداً قَالُوا مَعْذِرَةً إلَى رَبِّكُمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)) .
ولا شـك أن فـي الـتـعـاون على البر والتقوى مع هؤلاء الزملاء خيراً كبيراً في نشر المعروف وإزالة المنكرات التي تعج بها المستشفيات.
والسؤال الذي يطرح نفسه.. كيف يتم ذلك؟
من الواجب أن يخصص الطبيب المسلم لهؤلاء وقتاً يجلس لهم فيه، يـراعـي فـيه أن يكون مناسـباً للجميع، ولا يتعارض مع وقت العمل ، حتى لا يكون هناك تضييع لحق المرضى، وكلمة - يخصص - فيها من الجدية الشيء الكثير.
- السعي في حاجاتهم الدنيوية :
من مساعدة في العمل ، وبالذات ما يتعلق بالمناوبات وحل للمشاكل ، وعطف ومشاركة فـي الهموم وقد قيل :
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهـــم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ.
- القدوة الحسنة في أمور الدنيا والدين.
- الزيارة المنزلية لما فيها من التحبب ورفع الكلفة.
- الهدايا الحسية مثل : الأشرطة والكتيبات بل قد تكون كتباً طبية أو حتى قلماً الخ..
- الهدايا المعنوية : من ذكرهم بالخير ، والإشادة بالمبرزين في حقول اختصاصهم بالحق.
- الاحترام ، الابتعاد عن التفاهات ، الترفع عن التكالب على أمور المعاش ، الابتعاد عن تصيد الأخطاء.. هذه وغيرها أمور ينبغي أن يتحلى بها الداعية عند دعوته لزملائه.

دعوة المرضى :

وقد وظف المنصرون هذا الأمر لنشر دينهم الفاسد خير توظيف ، ولا شك بأننا أولى بهذا منهم فليس عجائز بريطانيا مثل : تيريزا وغيرها من الآلاف الذين يجوبون أصقاع المعمورة بخير من حملة التوحيد من الأطباء المسلمين ، وهنا أركز على النقاط التالية :
- احتساب الأجر عند الله وحده عند علاجهم لقول الله تعالى : ((ومَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)) وقوله -صلى الله عليه وسلم- : »من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة«.
- الصبر عليهم عند علاجهم : وبالذات على كبار السن توقيراً لهم ، وعلى الأطفال رحمة بهم ، وعلى الملهوفين في الحالات الطارئة ، لقوله -صلى الله عليه وسلم- : »في كل ذات كبد رطبة أجر«.
- طلب الدعاء منهم : وبالذات من الضعفاء منهم الذين لا يملكون إلا الدعاء ، وقد يكون فيهم من لو أقسم على الله لأبره.

- نصحهم : وبالذات في قضايا العقيدة من رقى وتمائم وأحجبة وغيرها ، والمريض يكون عادة في حالة من الضعف يتقبل فيها ما يشير عليه الطبيب ، ثم حضهم على الصلاة والحجاب وغير ذلك.
- تذكيرهم بالله ، وذلك عن طريق رد النتائج إلى الله عز وجل ، وأن الطبيب ما هو إلا أحد الأسباب التي تجري عليها أقدار الله.
- السؤال عن أحوالهم في البيت وعن أولادهم أو آبائهم ، والتلطف معهم مما يؤدي إلى تكوين علاقة شخصية ودية ليس فيها طابع الرسمية ، بشرط البعد عن المبالغة في رفع الكلفة ، الأمر الذي قد يؤدي إلى الابتذال المذموم.
- إعداد بعض الأشرطة أو الكتيبات وإهدائها إلى هؤلاء المرضى.

دعوة أقارب المريض:

وينطبق عليهم ما ذكر آنفاً ، إضافة إلى وجوب حرص الطبيب على الجلوس معهم ومقابلتهم لشرح حالة المريض لهم ، وبالتالي التأثير عليهم من خلال مناصحتهم.

دعوة العاملين في المستشفى :

والمقصود غير الأطباء من ممرضين وفنيين وإداريين وسائقين وغيرهم ، وهناك أمور منها:
* مراعاة التركيز على كل الطبقات ، فلا ينبغي استصغار أحد لجنسه أو وظيفته أو غير ذلك.
* الاهتمام برؤساء الأقسام ممن فيهم سيما الصلاح ، لأنهم أهل الحل والربط ، وقد ينفع الله بهم من خلال تعميم لا يكلف بضع دقائق مما يوفر الجهد والوقت.
* الاهتمام بغير المسلمين بدعوتهم وتقديم الكتب والأشرطة إليهم ، ومعاملتهم معاملة تقربهم إلى الإسلام ، ولا تنفرهم منه بضوابطها الشرعية ، وقد أثمرت هذه الجهود في كثير من المستشفيات ، ورأينا أن الكثير من هؤلاء العاملين قد دخلوا في الدين الله أفواجاً ، ويكفي قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : »لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم«.
* الحذر عند التعامل مع النساء - من المبالغة في التحادث بحجة الدعوة أو حتى العمل الطبي ، مما قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه من معاصٍ وفتن أو سوء فهم.

دعوة الإدارة :

وهم كما قال -صلى الله عليه وسلم- : »إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن« وبيدهم - بعد الله - الإصلاح أو التسبب في الفساد العريض ، لذا كان من الواجب الاهتمام بدعوتهم من خلال الكتابة لهم ونصحهم مع استخدام أسلوب مناسب مع المترددين منهم ، وينبغي أن يشارك في هذا الأمر كل غيور على دينه حريص على دنياه وآخرته ، مع استخدام أسلوب التخويف بالله

والترغيب فيما عنده ، أما الصالحون من الإداريين فينبغي التحبب إليهم ومساعدتهم والوقوف بجانبهم ودعمهم معنوياً .
وأخيراً هناك ملاحظات عامة ينبغي ذكرها لعموم البلوى بها منها:

- 0عدم ترتيب الأولويات في الدعوة ، فمثلاً قد يبدأ الطبيب بِحَثِّ المريض على عدم التدخين على الرغم من مقارفة المريض لشركيات وكبائر ينبغي البدء بها أولاً .
- 0سوء الخلق عند بعض الأطباء ، فمهما كانت المبررات ليتذكر المرء قوله -صلى الله عليه وسلم- : »وتبسمك في وجه أخيك صدقة«.
- 0التحاسد في أمور الدنيا ، وأمره شنيع إن كان بين الأخوة المتحابين في الله.
- 0عدم مشاورة الأخيار من الأطباء ، اتباعاً لشهوة أو كبراً أو غروراً ، مع أن الله عز وجل أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالشورى فقال : ((وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)) ، مما يؤدي إلى بعض الاجتهادات الخاطئة التي قد تفسد ما بناه الآخرون.
- 0ضعف العلم الشرعي بصفة عامة ، وبالذات ما يتعلق بمجال الطب ، والحل هو التزود من العلم بسؤال العلماء ومراجعة أهل الخبرة من الصالحين خاصة في بدء حياته العلمية.
- 0ظاهرة الاستغراق في العمل : فيصحو الإنسان وينام وهو يفكر في دنياه ، وينسى أن الله قد خلقه لغير هذا ، حتى ينحصر اهتمام الشخص بين البيت والمستشفى وما تبقى ففي المسجد.

المبالغة في تقـديـر مصلحة الدعوة : مما يؤدي إلى السكوت عن المنكرات ، بل استمرائها ، ومــن ثــم الانحراف والنكوص على الأعقاب لا سمح الله.
وختاماً .. هذا غيض من فيض، لكن؛ ليتذكر كل طبيب أن الله قد خلقه لعبادته ، وأن الحياة ليست عبثاً ولا معطفاً أبيض وسماعة فحـسـب ؛ بل هي جهاد واحتساب حتى يأتي الله بأمره ، وأن الأمة تنتظر منه أن يحـمــل هم الدين عنها - في مجاله على الأقل - في عصر اجتمعت فيه أمم الكفر على ضرب الإســلام عن قوس واحدة ، ولا ينسى أنه قد قطع من العهود والمواثيق بينه وبين الله أثناء دراســتـه على مقاعد الكلية أن يقوم بأداء مهمته خير قيام حال تخرجه ، قال تعالى: ((ومِنْـهُــم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّــن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وتَوَلَّوْا وهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وعَدُوهُ وبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)) [التوبة75-77] نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه.

فكر

حوار في الديمقراطية

جمال سلطان

نشر الأستاذ فهمي هويدي في منبره الأسبوعي بجريدة الأهرام المصرية فتوى مثيرة للشيخ القرضاوي حول مسألة (الديمقراطية) ، أراد منها الشيخ القرضاوي - وفقه الله وإيانا - أن يكشف للإسلاميين عن حقيقة الموقف الإسلامي الشرعي من (الديمقراطية) أو كما يعبر الأستاذ فهمي هويدي بقوله : (إن الشيخ القرضاوي أراد أن يحسم في فتوى مفصلة تلك العلاقة المتوترة بين بعض الإسلاميين والديمقراطية ، وأن يؤصل من منطق شرعي موقف الإسلام من مختلف القيم التي تقوم عليها الديمقراطية).

القضية على جانب كبير من الأهمية ، وعندما يدلي فيها بدلوه فقيه في موقع يوسف القرضاوي ، فإن الأمر يزداد خطورة وأهمية ، وإذا أضفت إلى ذلك المنبر أن الذي نشرت من خلاله الفتوى يظفر بقراءة ما لا يقل عن مليون ناطق بالعربية ؛ فإن الخطر - ولا شك - يتعاظم ، ويفرض نفسه على كل صاحب قلم وحامل فكر.

والفتوى - في صورتها التي نشرت بها - غير ذات موضوع أصلاً ، وشبه معدومة القيمة ، وحسبك أن تكون أمام كلام لا تستطيع أن تقول عنه إنه صواب ، ولا تستطيع أن تقول إنه خطأ ، وانما ثمة التباس غريب ، وحقائق موضوعية وتاريخية غابت عن الشيخ أدت إلى خلل في حديثه، يستدعي مني وقفة غير قصيرة أناقش فيها (حيثيات) الفتوى، مطمئناً إلى سعة صدر صاحبها ، لما نعلمه عنه من حرصه على استبانة الحق حيثما كان ، وهمه المخلص -إن شاء الله- بالقضايا الكبرى التي تشغل الشباب المسلم في هذا العصر

سؤال الفتوى -كما أثبته الأستاذ فهمي- هو: هل الديمقراطية كفر حقاً؟

فافتتح الشيخ حديثه بالقول: (إن جوهر الديمقراطية أن يختار الناس من يحكمهم ويسوس أمرهم ، وألا يفرض عليهم حاكم يكرهونه، أو نظام يكرهونه ، وأن يكون لهم حق محاسبة الحاكم إذا أخطأ، وحق عزله إذا انحرف، وألا يساق الناس إلى اتجاهات أو مناهج اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو سياسية لا يعرفونها ، ولا يرضون عنها. هذا هو جوهر الديمقراطية).

ثم يضيف الشيخ معقباً: (الواقع أن الذي يتأمل جوهر الديمقراطية يجد أنه من صميم الإسلام) وهذا المدخل هو الخطأ الأول والجوهري ، الذي ترتب عليه خطأ الفتوى برمتها.

لقد قرر الشيخ أن جوهر الديمقراطية هو أن يختار الناس من يحكمهم .. الخ ، وهذا هو ناتج أساسي من نواتج الديمقراطية ، أو مظهر بارز من مظاهرها ، وإنما الديمقراطية هي - في جوهرها - رفض (الثيوقراطية) أي سلطة الدين والحكم باسم الله في الأرض ، والميلاد التاريخي للديمقراطية كان نتيجة صراع الدولة ضد الكنيسة ، الحكم المدني ضد الحكم الديني ، الحكم باسم

الشعب والبشر ضد الحكم باسم الله والدين ، وبوجه آخر نقول : إن الديمقراطية هي وجه العملة الآخر للعلمانية ، وكان من مترتبات ذلك أن ترفع وصاية أي بـشــر مهما كان جبروته وسلطانه ، عن كاهل الشعب ، لأننا إذا رفعنا وصاية الدين والإله ، من أجل الشعب ، فكل وصاية دونها على الشعوب تكون مرفوضة بطريقة الحتم والمنطق ، ومن هنا تولدت الوسائل والنظم التي تحكم إرادة الشعوب لمجتمعاتها بحيث. تحول دون ظـهـور القـهـر والتسلط والاستبداد أو بأي وجه يكون ، وذلك بعد أن حققت (الدولة المدنية) بمفكريها ورجالاتها النصر النهائي على الكنيسة ورجال الدين، وانتزعت السيادة منهم على النحو الذي يعرفه ببساطة أي دارس للتاريخ الأوربي الحديث.

وكان من مترتبات هذا النصر النهائي للحركة الديمقراطية ، أن نزعت صفة القداسة عن أي وضع وأية قضية وأي معنى ، ما لم يقرر الشعب أنه مقدس ، والحرام هو ما غلب رأي الناس أنه حرام ، والحلال هو ما غلب رأي الناس أنه حلال ، بغض النظر عن أي مرجعية أخرى ، دينية أو غيرها ، لأنه إذا قررت أن ثمة مرجعية تشريعية هي فوق البشر أو قبل رأي الشعب ، فأنت بذلك قد نقضت أصل الديمقراطية ، لأنك إذا قلت مثلاً : إن هذا الأمر لا يجوز للناس العمل به بنص القرآن ، فأنت بذلك جعلت الحكم لله ، وليس للشعب ، وطالما سحب الحكم والتشريع من الشعب ، فقد انتهت القصة (الديمقراطية).

هذه هي قصة الديمقراطية - باختصار - وهذا هو جوهرها ، الذي يعلمه علم اليقين الأستاذ فهمي هويدي وتياره الفكري ، فهل يا ترى نستطيع أن نقول مع الشيخ : (إن الذي يتأمل جوهر الديمقراطية يجد أنه من صميم الإسلام؟!) ، أو أن نقول معه أيضاً : (إن الإسلام قد سبق الديمقراطية بتقرير القواعد التي يقوم عليها جوهرها ، ولكنه ترك التفصيلات لاجتهاد المسلمين وفق أصول دينهم ، ومصالح دنياهم ، وتطور حياتهم) الواضح تماماً من فتوى الشيخ ، أنه تصور الديمقراطية على صورة معينة يأملها ويتمناها ثم أصدر فتواه مفصلة على هذا (الخيال) الذي داعب أمانيه ، لا على الحقيقة التاريخية والموضوعية التي صاغت مصطلح (الديمقراطية) في الفكر الإنساني الحديث.

ولعله من أبين ما يدلك على ذلك ، قول الشيخ في فتواه : (وقول القائل إن الديمقراطية تعني حكم الشعب بالشعب ، ويلزم منها رفض المبدأ القائل إن الحاكمية لله ، قول غير مسلم فليس يلزم من المناداة بالديمقراطية رفض حاكمية الله للبشر فأكثر الذين ينادون بالديمقراطية لا يخطر هكذا ببالهم ، وإنما الذي يعنونه ويحرصون عليه هو رفض الديكتاتورية المتسلطة ، رفض حكم المستبدين بأمر الشعوب ، من سلاطين الجور والجبروت) أ. هـ.

وأنا - في الحقيقة - لم أستوعب قول الشيخ إن (الذين ينادون بالديمقراطية لا يخطر هذا ببالهم ، وإنما الذي يعنونه ويحرصون عليه هو...) هل أجرى الشيخ

إحصاءاً أنتج له هذه الحقيقة؟ وإذا قال مخالفه : (إن أكثر الذين ينادون بالديمقراطية هذا ما يدور ببالهم) ما الذي يرجح قول أحدهم على صاحبه؟
إن الفتوى الشرعية تحتاج إلى ضبط في الكلام بصورة أكثر دقة وإحكاماً من مثل هذه العبارات العاطفية الفضفاضة ، وإني لأعذر الشيخ في حماسته هذه في الدفاع عن قيم العدل والحرية وحفظ حقوق الإنسان وكرامته ، فمثله ومثلي ، يعرف كم هي قاسية سياط الجلادين ، وكم هي موحشة سجون المستبدين ، بيد أن حديث العدالة والحرية وحقوق الإنسان شيء ، وضبط مصطلح فكري سياسي لإجراء حكم شرعي عليه شيء آخر ، كما أن الواقع يبقى دائماً ما كان لا ما ينبغي في تقديري أن يكون ، ولنتأمل قول الشيخ : (والمسلم الذي يدعو إلى الديمقراطية إنما يدعو إليها باعتبارها شكلاً للحكم ، يجسد مبادئ الإسلام السياسي في اختيار الحاكم ، وإقرار الشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومقاومة الجور ، ورفض المعصية ، وخصوصاً إذا وصلت إلى كفر بواح ، فيه من الله برهان) أ.هـ.
وأنا هنا أوافق الشيخ تماماً على ما حدده من منهج للحكم الإسلامي ، ولكن ما الذي يدعوك - يا سيدي - لكي تضع خاتم الديمقراطية على هذا الحديث وذاك المنهج؟! ما هي بالضبط القداسة التي يحملها مصطلح غربي التكوين والنشأة والتاريخ والصراع والدلالة ، لكي تستميت في الدفاع عنه وتحسين صورته أمام المسلمين ، بالقدر الذي يذكرنا بالهوس الذي طاف بعقول بعض المسلمين في الخمسينات والستينات حول مصطلح (الاشتراكية) حتى جعلوها والإسلام وجهين لعملة واحدة! وها هي التجربة تعود مرة أخرى مع مصطلح (الديمقراطية).
إن الديمقراطية ليست ما تفصله أنت على مقاسك ، أو يفصله غيرك ، الديمقراطية منهج كامل لصياغة البناء الاجتماعي ، إما أن تقبله وإما أن ترفضه وتبحث لك عن منهج آخر يولد لك مصطلحات أخرى تناسب عقيدتك ودينك وتاريخك وإنسانك.
وإذا جاز أن نقبل المصطلح مع إجراء بعض التعديل عليه ليناسب بيئتنا ، فما قولك في مصطلح (الثيوقراطية) ، وهو (الحكم الإلهي) فقط سنستبعد منه احتكار رجال الدين للحكم باسم وصاية السماء على ما عرفه التاريخ الكنسي الأوربي ويبقى لنا أنها تعني جعل حكم الله هو المهيمن على البشر والمحدد لشريعة المجتمع ، هل نستطيع أن نقول حينئذ أن جوهر الديمقراطية (حكم الله) هو الإسلام؟!
إنه بالقدر الذي تقول به : إن الديمقراطية من الإسلام ، يصح القول إن الثيوقراطية من الإسلام!! أما نحن فنقول : إن الديمقراطية والثيوقراطية كلاهما مصطلح أوربي النشأة والتكوين والتاريخ والدلالة ، ولا يعنينا أمرها كمسلمين لأن الإسلام لم يعرف حكم طبقة رجال الدين كما لم يعرف يوماً

(صكوك الغفران) كما لم يعرف الصراع بين الدولة المدنية والكنيسة أو بين الدين والدولة إجمالاً لأن الإسلام كدين وتاريخ وحضارة يختلف عن المسيحية كدين وتاريخ وحضارة ، مما يعزز لنا -بالبديهية المحضة- اختلاف المصطلحات الفكرية والسياسية والمنهجية بين كلا المنظومتين.
القضية هنا ، أن بعض المسلمين يتخيل أن حقوق الإنسان والعدالة والحرية وحق تداول السلطة ومنع التجبر في الأرض هي أمور حكر على التنظيم الديمقراطي للمجتمع، بحيث لا يمكن لهم تصور هذه المبادئ تتحقق تحت أي مظلة أخرى مصطلحية في الإسلام، وهذا خلل خطير ، إن هذه الحقوق والمبادئ الإنسانية مجرد ناتج لميلاد العلمانية/الديمقراطية في المجتمع الأوربي ، ولكنها أيضاً يمكن إنتاجها وحمايتها وفرضها في المجتمعات الأخرى عن غير طريق العلمانية/الديمقراطية.
ولكن الهيمنة الفكرية الغربية على تيارات الفكر والسياسة في المجتمع المعاصر ، والجبروت الذي تمارسه المركزية الأوربية على عقول ونفوس أبناء العالم الثالث - ومنهم كثير من المسلمين - لم تدع فرصة للعقل غير الأوربي أن يفكر بأصالة ، أو يتخيل نتاجاً فكرياً ومنهجياً لا يجذب إلى (القطب الأوربي) ومنهاجه ومصطلحاته ، فكانت معظم الجهود (العالمثالثيه) في مجال الأفكار والمناهج والمصطلحات - ومنه هذه الفتوى - مجرد تذييلات وهوامش على المتن الأوربي ، بيد أننا في الحالة الإسلامية يأبى الضمير الإسلامي إلا أن يسجل تحفظاته الخجلى على الديمقراطية ، ويتجاهل أن هذه التحفظات تعني في الواقع الموضوعي رفض الديمقراطية ولكننا نصر على الاحتفاظ بالمصطلح والدفاع عنه رغم أننا - موضوعياً - أبطلناه.
إن حزب الفراشة الإيطالي - حزب المومسات - فرض نفسه على الساحة الحزبية ، ودخلت بعض أعضائه إلى البرلمان الإيطالي لكي يكون (صوت المومس) كافياً لتشريع أي قانون جديد في المجتمع إذا تساوت الأصوات ، الذي لا يريد أن يعترف به الشيخ القرضاوي أن حزب الفراشة يمارس حق الديمقراطية ، وأنك إذا رفضت وجوده أو رفضت دخوله البرلمان ، أو رفضت الاعتداد بأصوات أعضائه ، فأنت غير ديمقراطي ، وهذا فعل ضد الديمقراطية ، هذه حقيقة موضوعية لا حيلة لك فيها ، ولا مهرب لك من الإقرار بها.
صحيح أنك ترفض ذلك وأنا كذلك أرفضه ، ولكن معنى ذلك أننا نرفض الديمقراطية كإطار منهجي للحكم في بلاد الإسلام ، ويبقى أن نبحث أنا وأنت عن مصطلح جديد ومنهج جديد ، يربط بين الدين والدنيا ، الشريعة والمجتمع ، العدالة والأخلاق ، الحرية والقيم ، حق الله وحق العباد ، وهي كلها جوانب لا صلة للديمقراطية بها ابتداءاً ، ولا يؤرقك يا سيدي أن يرفض الغرب الاعتراف بمصطلحك الجديد ومنهجك الجديد ، فهو يرفض دينك من حيث الأصل(1) ،

كما أن المنطق الذاتي للديمقراطية التي تحكم حياته يلزمه بقبول وضعية التعددية ، هذا إذا أحسنا الظن بالتزامهم أي مبدأ لا سيما العلاقات الدولية.
في فتوى الشيخ يوسف القرضاوي عن الديمقراطية ، هناك خلل آخر في محاولته تحليل مشروعية بعض الجوانب الإجرائية في الممارسة الديمقراطية ، حيث حمل على فهم بعض الإسلاميين لها ، وأنا أترك نص الحديث له ثم يكون تعقيبنا:
يقول الشيخ : ومن الأدلة عند هذا الفريق من الإسلاميين على أن الديمقراطية مبدأ مستورد ، ولا صلة له بالإسلام ، أنها تقوم على تحكيم الأكثرية ، واعتبارها صاحب الحق في تنصيب الحكام ، وفي تسيير الأمور ، وفي ترجيح أحد الأمور المختلف فيها ، فالتصويت في الديمقراطية هو الحكم والمرجع فأي رأي ظفر بالأغلبية المطلقة أو المقيدة في بعض الأحيان فهو الرأي النافذ وربما كان خطأ أو باطلاً .
هذا مع أن الإسلام لا يعتد بهذه الوسيلة ولا يرجح الرأي على غيره لموافقة الأكثرية عليه ، بل ينظر إليه في ذاته أهو صواب أم خطأ ، فإن كان صواباً نفذ ، وإن لم يكن معه إلا صوت واحد، أو لم يكن معه أحد، وإن كان خطأ رفض، وإن كان معه(99) من الـ(100)!!
بل إن نصوص القرآن تدل على أن الأكثرية دائماً في صف الباطل وفي جانب الطاغوت كما في مثل قوله تعالى: ((وإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)) [الأنعام:116] ، ((ومَا أَكْثَرُ النَّاسِ ولَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)) [يوسف:103]، وتكرر في القرآن مثل هذه الفواصل القرآنية ((ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)) [الأعراف:187] .
ثم يضيف الشيخ معقباً على ذلك بقوله : وهذا الكلام مردود على قائله وهو قائم على الغلط والمغالطة. فالمفروض أن نتحدث عن الديمقراطية في مجتمع مسلم أكثره ممن يعلمون ويعقلون ويؤمنون ويشكرون ولسنا نتحدث عن مجتمع الجاحدين أو الضالين عن سبيل الله.
ثم إن هناك أموراً لا تدخل في مجال التصويت ولا تعرض لأخذ الصوت عليها ، لأنها من الثوابت لا تقبل التغيير إلا إذا تغير المجتمع ذاته ولم يعد مسلماً .
فلا مجال للتصويت في قطعيات الشرع وأساسيات الدين وما علم منه بالضرورة إنما يكون التصويت في الأمور الاجتهادية التي تحتمل أكثر من رأي ، ومن شأن الناس أن يختلفوا فيها ، إذا اختلفت الآراء في هذه القضايا فهل تترك معلقة أو تحسم؟ هل يكون ترجيح بلا مرجح؟ أم لابد من مرجح؟
إن منطق العقل والشرع والواقع يقول لا بد من مرجح ، والمرجح في حالة الاختلاف هو الكثرة العددية فإن رأي الاثنين أقرب إلى الصواب من رأي الواحد وفي الحديث : »إن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد« ، وقد

ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأبي بكر وعمر: »لو اجتمعتما على مشورة ما خالفتكما« أ. ط..
وهذا الكلام يحتاج إلى بعض التفصيل لما فيه من أوهام ومغيبات وبداية أنا أتعجب من كون الشيخ وضع رأي مخالفيه الذين يرى بطلان قولهم وصدره بأنهم يرون أن الديمقراطية مبدأ مستورد ، ولا صلة له بالإسلام ، فهل يرى الشيخ القرضاوي - يا ترى - أن الديمقراطية مبدأ غير مستورد ، وأنه مبدأ أصيل نشأ وتولد وترعرع في حنايا التاريخ الإسلامي وتحولاته الحضارية والمنهجية والدينية والسياسية ؟! فمتى إذا حدث ذلك؟ وفي أي زمن منذ بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؟! ومتى استوردت أوربا الديمقراطية من المسلمين؟! وما ملابسات ذلك الحدث التاريخي الفذ والمثير الذي خفي على العالمين هذه القرون الطويلة؟
أظن إنه ما كان يليق بالشيخ أن يصدر حديثاً بتلك العبارة وذلك أنه أو أي مسلم آخر لا يستطيع الادعاء بأن الديمقراطية مبدأ غير مستورد من المنظومة الأوربية ، وإنما الخلاف هو في موقف الإسلام منها ، هذه واحدة ، أما قول الشيخ في رده (المفروض أن نتحدث عن الديمقراطية في مجتمع الجاحدين أو الضالين عن سبيل الله) ، فهذا فساد موضوعي ظاهر ، فالديمقراطية لا تعني بهوية الإنسان وإيمانه وكفره ، نوعية القيم التي يحملها ، فالكل سواء ، عالم الدين والبغي والمسلم والنصراني ، أما إذا قلت بأن حق الممارسة الديمقراطية في المجتمع المسلم موقوف على المسلم المتدين ولا يدخل فيه غير المتدين ، أو الشاذ جنسياً أو النصراني أو اليهودي أو الملحد ، فأنت بذلك تتحدث عن نظام آخر ، ومنهج آخر ، سمه ما شئت ، إلا أنه - على وجه القطع - ليس الديمقراطية ، وكذلك قول الشيخ (ثم إن هناك أموراً لا تدخل مجال التصويت ولا تعرض لأخذ الأصوات عليها لأنها من الثوابت التي لا تقبل التغيير ، إلا إذا تغير المجتمع ذاته ولم يعد مسلماً.
والمفارقة التي يستغربها الشيخ هنا أن المجتمع إذا تغير ولم يعد مسلماً أمكن له أن يكون ديمقراطياً ، أما إذا ظل مجتمعاً مسلماً فقطعاً لن يكون ديمقراطياً ، لأنه يملك منظومة أخرى من الثوابت والعقائد والقيم التي يستحيل إخضاعها لرأي البشر.
وهنا نعود إلى أصل الخلل في تصور الشيخ لماهية الديمقراطية وجوهرها ، ففي الديمقراطية الشعب هو المرجع ، وهو الحاكم ، وهو المشرع ، وهو الثابت الوحيد ، فإذا قلت : إن هناك أموراً لا تخضع للتصويت أو لا تدخل في مجال التصويت ، فأنت بذلك غير ديمقراطي قطعاً ، وإذا قلت : إن هناك ثوابت فكرية أو دينية أو خلقية أو اقتصادية أو سياسية لا تقبل التغيير فأنت بذلك غير ديمقراطي ، وكذلك قول الشيخ (فلا مجال للتصويت في قطعيات

الشرع) قول غير ديمقراطي ، لأن تقريرك أن هناك شرعاً يحكم فوق إرادة البشر فهذا طعن في صلب الديمقراطية وجوهرها.
هل اتضحت الصورة الآن أمام الشيخ وهويدي وتياره؟ إنني أوافقهم تماماً على كل الضوابط والحدود والأطر التي وضعوها لسياسة المجتمع المسلم ، ولكن الخلل الأساسي أنهم يأبون - ولا أدري لماذا - إلا أن يضعوا شعار الديمقراطية على منهج الله ونظام الإسلام السياسي ، هل يظنون أنهم يجملون الإسلام ومنهجه بوضعهم هذه اللافتة المستوردة عليه؟ إن الإسلام - يا أصحابي - أجمل وأعلى وأطهر وأعدل من الديمقراطية ومن كل تصور بشري وضع لسياسة المجتمع ، لا أقول ذلك مجرد انتصار للدين ، أو حماسة إيمانية مجردة وإنما هي قناعة راسخة من تجوال البحث والنظر والتأمل في تحولات التاريخ الإنساني القديم والحديث ومآلات الأوضاع في العالم الإنساني المعاصر.
يا إخواني : إنكم بذلك تثيرون الارتباك والحيرة والتشتت الذهني في عقول وضمائر شباب الصحوة الإسلامية ، الذي تأمل من الأمة تحقيق نهضتها المرتجاة. لماذا لا تبحثون عن فكرة أصيلة بناءة ، تصوغون بها مشروعاً إسلامياً أصيلاً للنهضة لتنظيم الفعل الاجتماعي الإسلام الجديد؟ هل أصبحت وظيفة الفقيه المسلم أو المفكر الآن أن ينتظر البضاعة الغربية فكرية أو مادية لكي يضع عليها الشعار التقليدي : (مذبوح على الطريقة الإسلامية)؟.
يا إخواني : ألم يعرف الإسلام نظاماً ومجتمعاً وحضارة ونظريات سياسية وأنماط إدارية قبل ظهور الديمقراطية؟ ألم يعرف الإسلام ومجتمعه عدلاً ورحمة وحرية واستنارة وتحضراً وشورى وتعددية فكرية ومذهبية وغير ذلك قبل ظهور الديمقراطية؟!
إذا كان الإسلام يعرف ذلك فحدثونا عنه ، وأعيدوا صياغته ، وطوروا آلياته ومؤسساته ، ودققوا فـي تنظـيـمـــاته ووسائل تحقيقه ، وولدوا ما تحتاجون إليه من مصطلحات أصيلة وشعارات مسلمة تعبر عــن خصوصية منهج الإسلام في الحكم بدلاً من هذا التسول الفكري والمذهب الاصطلاحي المزري والمهين عند أعتاب الفكر الأوربي الحديث.
فضيلة الشيخ يوسف ، الديمقراطية والعلمانية وجهان لعملة أوربية واحدة ، ومن قال لك غير ذلك فقد كذبك ، وكلاهما مرفوض إسلامياً ، ولكن ليس معنى رفضهما أننا - بالحتم - نرفض بعض النتاجـــات الـتـي تولــدت عنها والتي تتشابه مع بعض القيم الإسلامية، فـحـــــق الأمة في اختيار الحاكم وحق عزله إذا انحرف أو محاسبته إذا أخطأ ، وحرية الرأي وحـق الاختلاف ، وحفظ كرامة الإنسان وآدميته ، وحق تداول السلطة ، واحترام حقوق الأقـلـيـات ونحو ذلك كل هذه أركان أصيلة في منهج الإسلام في الحكم بنص كتاب الله وسنة رســـولــه -صلى الله عليه وسلم-، ولكــنـهـــا أركان تقوم

على أسس تصورية وعقيدية، وتحكمها ضوابط وأطر منهجية ، تختلف تماماً عـــن الأســـس والضوابط التي تمثلها (الديمقراطية) كمنهجية لسياسة المجتمع البشري.
يا فضيلة الشيخ، ليس هذا دورك، ولا تلك قضيتك ، وإنما هذه تهويمات أدعياء الاستنارة والمترفين فكرياً ، والذين لا يحملون هـمـــوم الأمة ونهضتها ولا يعرفون قدر دينهم ومعنى أنهم يحملون رسالة الإسلام للعالمين.
يا فضيلة الشيخ، لقد سارت فتواك في الناس،واطلع عليها الجمع الغفير من مثقفي الأمة، إني أسألك بحق العهد والميثاق الذي تحملونـــه (لتبينه للناس ولا تكتمونه) أن تعيد النظر وتجيله فيما أثبته في هذا الحوار ، لعل الله يهدينا لأقرب من هذا رشداً ، والحمد لله أولاً وآخراً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الهوامش:

1- بل يرفض الديمقراطية نفسها إذا أحس أن المسلمين سينتفعون منها ، كما هو حاصل في أكثر من مكان في العالم الإسلامي.
- التحرير -

خواطر في الدعوة

((ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ))

محمد العبدة

جاءتني رسالة من طلبة مسلمين يدرسون في أقصى المشرق ، يقولون فيها أنهم متحيرون بما تعج به الساحة الإسلامية من القيل والقال عن فلان الداعية أو الجماعة الفلانية ، فنسمع من القدح ما يصل إلى درجة التضليل والانحراف، والأسماء كثيرة ومتنوعة، ونحن نبحث عن الحق وعن المنهج الذي يجب على المسلم الالتزام به تجاه ما يدور حوله.
إن تـسـاؤلات هــؤلاء الإخــوة ليست قاصرة عليهم ، بل ربما سمع كثير من الشباب المسلم بمثل ما سمعوا ، ووقفوا متحيرين متسائلين عن وجه الحق في غمرة هذا التفرق والتشرذم ، ونحن نعذر بعض العذر هــؤلاء الإخــوة لكثرة ما يقال ويكتب في أمور تشوش الذهن وتكدر الخاطر ، وليس فيها مصلحة للدعوة. ونـقــول بعض العذر لأن المسلم المتعلم أمثالهم يجب أن يملك الميزان لمعرفة واقع الدعوات والدعاة ، ومن أوْلى الموازين في ذلك قوله تعالى: ((ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)) وكثير مما يقال هو بالتأكيد أقوال بلا علم، أغلبها روايات تنشر تعتمد على الحزبية، والـقــراءات ضـعـيـفـة والتحقـيـق يـتـعبهم، وعندئذ يلقى القول على عواهنه.
ومــن الـمـوازيــن أن منهج أهل السنة والجماعة - وهم خير القرون - هو الأصل في هذا ، ومنهجهم في الفهم والاستدلال من الكتاب والسنة ، وكل من

كان أقرب إلى هذا المنهج فهو الأقرب إلى الحـق ، ويجب على المسلم مؤازرته ومناصحته ، وهذا المنهج ليس كلمة تقال في المحافل بل تطـبـيـق علمي وعملي لقواعده ، واحترام لعلمائه ودعاته ، ومن تطبيقات هذا المنهج الإنصاف فـي الحكم ولو على الأعداء وعدم الخوض في أعراض المسلمين إلا أن يكون داعي بدعة أو ضــلالة. والفرق المنحرفة لا تملك هذه الأخلاق ، فتراهم يَدَعون أهل الجَوْر والفسق والفجور، ويلاحقون الدعاة بالنقد والتجريح ، وهذه طريقة الخوارج بعينها كما وصفوا بأنهم يدعون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإيمان.

ومن الموازين أن أصحاب المنهـج السليم يهيئ الله لهم القبول في الأرض ، فتكون طريقتهم مرضية ، ويوفقون في مسائل الـعـلـم التي يطرحونها ، وفي عرض الإسلام للناس ودعوتهم إليه ، وأهل البدع ليسوا كذلك ، وهـــذا مما يزيدهم حنقاً وحقداً فتكثر اتهاماتهم ويكثر لغطهم ، ويكون هذا من الابتلاء وزيــادة الأجر لمن يتكلم فيه الناس ، وشيء آخر وهو أن الأمور بخواتيمها ، ومن ثمراتهم تعرفـــونهم ، فانظر أيها السائل في الساحة الإسلامية ؛ من الذي يقدم العطاء؟ ومَنْ الذي لا يقـــدم ، وقد قال السلف : إذا رأيتم من يذكر الإمام مالك بسوء فاعلموا أنه مبتدع.

مصطلحات وتعريفات

عثمان جمعة ضميرية

يتردد في كتب العقيدة الإسلامية، بـعـض الألفـاظ والمصطلحات ، ينبغي أن نحدد معناها، وأن نتعرف عليها، لأن ذلك أمر ضروري ، منعاً للالتباس واختلاط المفاهيم ، وسنشير فيما يلي إلى ثلاثة مصطلحات هي : أهل السنة والجماعة ، والسلف ، وأهل الحديث.

1 - أهل السنة والجماعة :

ويجمع هذا المصطـلـح وصفين اثنين لأصحابه ، وهما: السنة والجماعة. قد تقدم فيما سبق شرح معنى السنة فـي اللغة العربية وفي الاصطلاح الشرعي العام ، وفيما يراد بها في كتب العقيدة. ولذا نشير هـنـا إلى معنى الجماعة ، ومن ثم نجمع بين هذين الوصفين فيتضح لنا عندئذ معنى هذا المصطلح المركب منهما.

الجماعة في اللغة: مأخوذة من الجمع ، وهو ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض. يقال: جمعته فاجتمع(1) .

قال ابن فارس في »معجم مقاييس اللغة«(2):

»الجيم والميم والعين أصل واحد ، يدل على تضامّ الشيء. يقال : جمعت الشيء جمعاً : والجُمَّاع : الأشابة من قبائل شتى.. وقدر جماع وجامعة ، وهي القدر العظيمة..«.

والجميع: ضد المتفرق،والمجموع: الذي جمع من هنا وهنا،وإن لم يجعل كالشيء الواحد.
وفلاة مجمعة: يجـتـمـع القوم فيها ولا يتفرقون ، خوف الضلال ونحوه ، كأنها هي التي جمعتهم. وكلمة جامعة: كثيرة المعاني على إيجازها، وجمعها: جوامع، كما في الحديث: "»أوتيت جوامع الكلم"«(3).
والجماعة: العدد الكبير من الناس.. وهي أيضاً طائفة من الناس يجمعها غرض واحد(4).
والجماعة هي الاجتماع، وضدها: الـفـرقــة .. وصــار لـفـظ الجـمـاعــة اسـمـاً لنفس القوم المجتمعين(5).
ومن هذه النصوص اللغوية وأمثالها نلاحظ أن الجماعة تتكون من جملة عناصر هي : الضم والتقريب بين أناس من هنا وهناك ، أي من جماعات شتى ، وفيها معنى العظمة والكثرة ، وأن الاجتماع وعدم التفرق يهدف إلى عدم الضلال والضياع ، وللجماعة الكثيرة هــذه هــدف وغــرض واحد تلتقي عليه ، فهي تسير على منهج واحد لتصل إلى غرضها وغايتها. ولـعــل هذه الصفات والأمور كلها لا تخرج عن المفهوم العام والمعنى الذي يريده العلماء من هذا المصطلح »أهل السنة والجماعة«.
وقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالجماعة والائتلاف ، ونهى عن الفرقة ، والاختلاف فقال : ((وَاعْتَصِـمُــوا بِحَـبْــلِ اللَّهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا)) [آل عمران: 103]، ((ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) [آل عمران: 105].
وتواردت أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في الأمر بملازمة الجماعة والتحذير من مفارقتها ، كقوله -صلى الله عـلـيه وسلم- في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- : »من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية«(6).
وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : »مــن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهـــو مـــن الاثنين أبعد«(7).
وعن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : »الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب«(8) 00 الخ.
واختلف العلماء في المراد بهذه الجماعة التي أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الأحاديث وما في معناها - بملازمتها.
وقد أجمل الشاطبي - رحمه الله - ذلك في خمسة أقوال :
1 - أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام ، فالسواد الأعظم هم الناجون من الفرق ، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق ، ومن خالفهم مات ميتة

جاهلية سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم ، فهو مخالف للحق.
2- أنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين ، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية ، لأن جماعة الله هي العلماء ، جعلهم الله حجة على العالمين ، وهم المعنيون بقوله -صلى الله عليه وسلم- : »إن الله لن يجمع أمتي على ضلالة«(9) ، وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها ، وإليها تفزع عند النوازل ، وهي تبع لها. فمعنى قوله »لن تجتمع أمتي«: لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة.
فعلى هذا القول : لا مدخل في السؤال لمن ليس بعالم مجتهد ، لأنه داخل في أهل التقليد ، فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية. ولا يدخل أيضاً أحد من المبتدعين.
3- أن الجماعة هي الصحابة على الخصوص ، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده ، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلاً ، وقد يقع من سواهم فيها. ألا ترى قوله -صلى الله عليه وسلم- : »لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس«(10).
4 - أن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام ، إذا اجتمعوا على أمر ، فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم ، وهم الذين ضمن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة ، فإن وقع بينهم اختلاف ، فواجبٌ تعرُّف الصواب فيما اختلفوا فيه.
قال الشافعي : الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله وسنةٍ ولا قياسٍ ، وإنما تكون الغفلة في الفُرقة.
وكأنً هذا القول يرجع إلى الثاني ، وهو يقتضي أيضاً ما يقتضيه ، أو يرجع إلى القول الأول وهو الأظهر.
وفيه من المعنى ما في الأول : من أنه لا بد من كون المجتهدين فيهم ، وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلاً ، فهم - إذاً - الفرقة الناجية.
5- ما اختاره الإمام الطبري من أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير. فأمرَ عليه الصلاة والسلام بلزومه ، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم.
وقد قال -صلى الله عليه وسلم- : »من جاء إلى أمتي ليفرق جماعتهم فاضربوا عنقه كائناً من كان«(11).
وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام والموافق للكتاب والسنة،وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنَّةٍ خارج عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث المـذكــورة ، كالخوارج ومن جرى مجراهم(12).
وما ننتهي إليه في معنى أهل السنة والجماعة: أنها الفرقة التي وعدها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنجاة من بين سائر الفرق. ومدار هذا الوصف على

اتباع سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وموافقـــة ما جاء به من الاعتقاد والعبادة والهدي والسلوك، وملازمـــة جماعة المسلمين ، وهو الحق الذي ينبغي التمسك به.
فعن عمرو بن ميمون قال : قدم علينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوقع حبه في قلبي ، فلزمته حتى واريته في التراب بالشام ، ثم لزمت أفقه الناس بعده : عبد الله بن مسعود ، فذكر يوماً عنده تأخير الصلاة عن وقتها ، فقال : صلّوها في بيوتكم واجعلوا صلاتكم معهم سُبْحة. قال عمرو ابن ميمون : فقيل لعبد الله بن مسعود: وكيف لنا بالجماعة؟ فقال لي : يا عمرو بن ميمون ، إن جمهور الجماعة هي التي تفارق الجماعة. إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك(13).
وقد سُمِّيَتْ بأهل السنة والجماعة لتمسكهم بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ، والعمل بها ، واتباعهم لما جاء به؟ ولأنهم يعتصمون بالحق وما عليه جماعة المسلمين فلا يفترقون في الدين ، وبذلك يكونون على الصراط المستقيم الذي هو دين الإسلام المحض الخالص ، وهو ما في كتاب الله تعالى ، فهو السنة والجماعة ، فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض(14).
وأهـل الـسـنـة والجـمـاعـــة ليسوا محصورين في جماعة معينة أو فئة أو بلد أو زمن دون الآخر، إذ كل من اتصف بسـمات أهل السنة وكان على منهجهم فهو داخل في دائرة أهل السنة والجماعة. وبهذا يلتقي مفهوم أهل السنة مع مفهوم السلف -الأتي-.

-يتبع -

الهوامش :

1- مفردات القرآن للراغب ص (96).
2- 1 /479.
3- الصحاح للجوهري : 3/1199 - 1200 ، وانظر: لسان العرب ، القاموس المحيط مادة »جمع«.
4- المعجم الوسيط : 1/135.
5- مجموع فتاوى ابن تيمية: 3/157.
6- رواه مسلم في الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين.. برقم 1848: 3/1476.
7- أخرجه الترمذي في الفتن ، باب في لزوم الجماعة: 6/185 ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد روي من غير وجه ، وصححه الحاكم : 1/114.
8- أخرجه الإمام أحمد: 4/278 ، وذكره الألباني في الصحيحة: 2/276.
9- روى هذا الحديث من طرقٍ، عـن أبي مـالـك الأشــعـري وابـن عمر وابن عباس وأنس وسمرة وأبي نضرة وأبي أمامة وأبي مسعود ، بألفاظ كثيرة ،

عند أبي داود والترمذي والحاكم وابن أبي عاصم في السنة. قال الزركشي بعد أن ساق رواياته كلها وطرقه : واعلم أن طرق هذا الحديث كثيرة ، ولا يخلو من علة وإنما أوردت منها ذلك ليتقوى بعضها ببعض ، ومن شواهده ما في الصحيحين عن أنس : قال مُرَّ على النبي -صلى الله عليه وسلم- بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال : »وجبت« ثم مُرَّ بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال : »وجبت« فقيل : يا رسول الله : لم قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت؟ قال : »شهادة القوم ، والمؤمنون شهداء الله الأرض« وفي لفظ مسلم »من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض -ثلاثاً-.
انظر »المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر للإمام بدر الدين الزركشي ص (57- 62) بتحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي.
10- أخرجه مسلم في الفتن ، باب قرب الساعة برقم (2949): 4/2268.
11- انظر صحيح مسلم ، كتاب الإمارة : 3/1480.
12 - الاعتصام للشاطبى: 3/ 260 - 265 باختصار يسير ، وانظر: فتح الباري : 13 /37.
13- انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 13/179 ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة : 1/108 -109.
14- انظر الفَرْق لين الفِرَق للبغدادي ص (318- 361).

البيان الأدبي

رؤية في تأسيس الأدب على الدين

د. مصطفى السيد

إذا كانت وثنية اليونان بما فيها مــن أرباب مـتفـرقـيـن إحــدى أهـم ينابيع الرؤيا للأدب والفلسفة في تلك الأمة ؛ وإذا كان [الكتاب المقدّس العمود الفـقـري للآداب الغربية في شتى صورها] (1) فهل يكون بدعاً من القول ، ومستهجناً من الرأي أن يدعو المسلم الأدباء الذين أشربوا في قلوبهم الإيمان لتأسيس رسالة الأدب تأسيساً لا يناقض روح الـنـص الإســلامـي المتمثل (بفَقَار العربية)(2) القرآن الكريم والحديث الشريف؟
لا أعـتقـد أن مثل هذه الدعوة ستنبذ من قبل أمة تعتز بصبغة الله(3) ((ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ونَــحْـنُ لَهُ عَابِدُونَ)) [البقرة:138]م. بل إن مثل هذه الأمة لن تجد غضاضة فى أن ترتد في الحافــرة(4) ، لـتـأطر(5) الإبداع الأدبي والدرس النقدي بقوة إلى العودة إلى فضاء التصور الإسلامي ، ولكنها ليست أوبة يكون عمادها الاسترجاع الآلى أو المحاكاة الشكلية للدور المفقود ، بل هي أوبة واعية للذات والموضوع ، ترعى رسالتها وتراعي المستجدات ، تملك

التراث ولا يملكها، وتمسك بالحاضر ولا يمسكها، وتـسـتـشـرف الـمـسـتقبل دون أن يستقر فيها فيقطعها عن ماضيها وحاضرها أو يغرقها في بحاره ، ويسجنها في إساره(6).
إن الدرس الأدبي الأول الذي اتخذ القرآن الكريم محوراً ، هو الذي وضع المـعـالم الأساس والبذور الأولى لنظرية (لغة الأدب) وهو الذي كشف عن أدبية النص وليس الشكـلانـيـيـن الروس كما هو مستقر حالياً في المـصادر الأوربية المختلفة. ذلكم الدرس الأدبي الأول الذي تمـحـور حــول اللـغــة فـي الـقـرآن الكريم ، وأنتج التآليف التي قامت على رصد مظاهر الانحراف في العبارة الأدبية بالقياس إلى اللغة في مستواها المثالي ، وهذا في الواقع هو المبرر الحقيقي لكي نسجّل للنحاة العرب والقائمين على الدراسة اللغوية للنص القرآني، أوليتهم فـي الـبـحـث الـبـلاغي، وذلك عـنـدمـا صنعوا ما سار عليه المحدثون من أصحاب النحو التحويلي من تفريقهم بين ما أطلقوا عليه: الـبـنـيـة الـسـطـحـيـة ومــا أطلقوا عليه البنية العميقة(7).
إن المحـاولات الــدؤوب لجـمـع ما تناثر عن إعجاز القران الكريم في القرن الأول والثاني الهجريين وتأطيره تمهيداً لتنظيره بمنظومة معرفية متكاملة ، هذه المحاولات كانت خيراً عميماً لكل الأطراف - الدارس/الموضوع /القارئ - انتقل معها وبها العقل العربي المسلم من الجزئي إلى الكلي ، ومن الظاهرة إلى النظرية، ومن الملاحظات المتناثرة إلى العلوم المتماسكة والثقافة المتآزرة. كما كانت قيمتها الأخلاقـيــة ودلالاتـهــا الجمالية ملتحمتين متوحدتين تأخذان بجماع عقل القارئ وتسدّان عليه أبواب الملل والسأم.
إن ذلك حصل كله بفضل الله ثم بما (كان لإعجاز القرآن من تأثير في تحريك الفكر اللغوي والأدبي والبلاغي والكلامي على حد سواء. فقد كان الانشغال بظاهرة إعجاز القرآن أكبر حافز للفكر العربي يومئذ على ارتياد مسالك الدرس اللغوي والأدبي. إذ بقدر ما كان لإعجاز القرآن من الوقع في نفوس الذين سمعوه أول مرة ، وانبهروا ببيانه ، واعتبروه دليلاً لا يرد على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بقدر ما ظل هذا الإعجاز يحتل حيزاً كبيراً من اهتمامات العلماء والدارسين على مر الأجيال ، فلم يتوقف الفكر عبر العصور الماضية عن البحث في وجوه إعجازه ، سواء كان ذلك بدافع الحاجة المتجددة إلى الدفاع عن هذا الإعجاز ، أو كان بدافع تبيين وجوهه ، وتأسيس العلوم المتفرعة عنه ، أو المقعِّدة لقواعده. فكان القرآن منطلق النظر في كل القضايا اللغوية والأدبية التي انشغل بها البحث فيما بعد)(8).
إن تلك المدارسة للقرآن الكريم أنجبت للعربية بل للدراسات الجمالية في العالم كله مجرّة من العبقريات الإسلامية ، أذكر منها على سبيل المثال لا الإحصاء: عبد القاهر الجرجاني (471- أو 474 هـ) ذلك العالم الذي أعطى علم البلاغة (هويته الكاملة) كما يقول الدكتور شكري عيّاد(9) وسبق بدراساته

لأساليب القرآن الكريم أحدث ما وصل إليه عالم اللغة السويسري (دي سوسير) كما يقول الدكتور محمد مندور(10) وهو النقاد الأول الذي اكتنه الطبيعة البنيوية للصورة كما يقول الدكتور كمال أبو ديب(11).
وهكذا فإن الإبداع في التراث العربي كان ينظر إليه دائماً وعلى مر العصور بأنه مرتبط بالدين ، لا نستطيع أن نتحدث عن إبداع عربي دون أن ندخل في الاعتبار العامل الأساسي وهو الرؤية الإسلامية إضافة إلى ما تمتاز به الحضارة العربية من مقومات كثيرة ، لكن هناك جانباً هاماً في تراثنا هو الجانب الإسلامي(12).
إن تأسيس الإبداع أدباً ونقداً على الاقتباس من النص الإسلامي علاوة على ما يمنحه للأدباء من قراءة واعية للقرآن الكريم والحديث الشريف ، فإن هذا التأسيس يشكل حصناً منيعاً أمام محاولات وغارات الاجتياح الثقافي والروحي للأمة ، ولكم دفع المسلمون ثمناً باهظاً للتضاد القائم بين خطابهم الأدبي ورسالتهم العقدية.
ثم لمصلحة من يغيب أو يغيّب إسلامنا عن أدبنا؟ حتى بلغ الأمر أحياناً إذا ذكر الدين في معرض الحديث عن الأدب ، اشمأزت قلوب كثيرة ، وإذا ذكر ما دونه أو من دونه إذا هم يستبشرون.
ثم أليس في تأسيس الأدب على الدين عود بالأمر إلى ينبوع الرؤية الأولى في هذا الكون ، إذ أن (الآداب العالمية إنما نشأت نشأة دينية(12) ، ويرى ويليام بليك (أن العهد القديم والجديد هما شريعة الفن العظيمة)(13) ، ويقول تومارس هاردي : (إن الأدب الصرف يشمل الدين لأن الشعر والدين يتماسان) (14).
ولم يكن إيماني بهذا الأمر ليتوقف على مقالات الغربيين ، ولكن عندما يرى المرء أن التغرب أوشك أن يصادر بعض العقول في بلادنا أحببت أن أذكِّر بأن الاحتفاء بالفكر الغربي يسع الجانب الإيجابي من هذا الفكر أيضاً.
إن (الإنسان منذ مولده قد استودع فطرة باطنة ، بعيدة الغور في أعماقه توزعه - تلهمه وتحركه - أن يتوجه إلى عبادة رب يدرك إدراكاً مبهماً أنه خالقه وحافظه ومعينه ، فهو لذلك سريع الاستجابة لكل ما يلبي حاجة هذه الفطرة الخفية الكامنة في أغواره ، وكل ما يلبي هذه الحاجة هو الذي هدى الله عباده أن يسموه »الدين« ولا سبيل البتة أن يكون شيء من ذلك واضحاً في عقل الإنسان إلا عن طريق »اللغة« والدين واللغة - منذ النشأة الأولى - متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل ، ومن أغفل هذه الحقيقة ضل الطريق ، وأوغل في طريق الأوهام ، هذا شأن كل البشر على اختلاف مللهم وألوانهم)(15) ، ويقول العلامة محمود محمد شاكر أيضاً في سفره الرائع -أباطيل وأسمار- درة الأدب الإسلامي اليتيمة:

»إنه لأمر مفروغ منه ارتباط الآداب بتاريخ الأمة وعاداتها وأخلاقها ودياناتها ، وما شئت من شيء تعدّ به الأمة ذات كيان قائم متميز، ودارس الآداب إذا لم يكن مطيقاً لذلك كله، بصيراً به ، حسن التصرف في جليله ودقيقه ، جيد الفهم لغوامضه ومبهماته ، فهو حري أن يشوه الصورة عند تركيبها ، تشويهاً فيه من الشناعة ما يجعل دراسته مُثْلَة بمن يدرسه ، كما يمثل المحارب المحترق بجثة عدوه ، وقد أطارت لبه حدّة العداوة والحقد ، واتقان دراسة هذه المادة كلها تعد دراسة أدبية محضة ، فلا يستطيع دارس أن يقول للناس : إنها ليست من صميم اختصاصي !!
فإذا قالها ، فذلك إيذان منه بأنه فقد التمييز ، وجهل أساس كل منهج ، واستحق أن يطرح الناس ما يقوله، إذا هو لم يجد عند نفسه القدرة على أن يستحي فيستر ما يكتب، ويغيبه في التراب عن أعين الناس. وظني أن هذا الذي قلته عن المنهج كاف في تمثل التبعة التي يتحملها دارس الآداب ، وفي إدراك التبعة التي يحملها القارئ حين يعرض عليه دارس ما درس ، فالأمر من أي نواحيه أخذته إذن جد لا هزل فيه)(16).
وفي ارتكاز الأدب على الدين مورداً ومصدراً إبداعاً ونقداً يرد البشرية المعاصرة إلى نقطة البداية في قصة الوجود الأولى ، وذلك عندما أهبط أبو البشرية آدم إلى الأرض ، بعد أن كرمه الله سبحانه بإسجاد الملائكة فيتذكر الأبناء تكريم الأب ، ويتذاكرون سيرته وعقيدته /التوحيد /ودينه /الإسلام / فيؤول من وفق منهم إلى الأصل ليأوي إلى ركن شديد ، بعلو النسب الأبوي والعقدي ، ويدرك الأبناء أن عدوهم اليوم هو عدو أبيهم بالأمس ، وأن هذه العداوة دائمة وقائمة إلى ما شاء الله أن تبقى ، لا كما صوره عمل يعد من أعظم المنجزات الأدبية في الغرب وهو مسرحية (فاوست) للشاعر الألماني جوته (تـ 1832م) أن مختلف القراءات المسرحية تعطي للشيطان دوراً جديداً في عالم ألغى الدين ، ولم يدع منه إلا معالم باطلة ، وأعدل هذه القراءات طريقة وهي التي ترى أن (هذه المسرحية تعد تشخيصاً لانتقال الإنسان من الإيمان بالغيب وطلب المعرفة عن طريق الأرض)(17) إن هذه القراءة مرفوضة في التصور الإسلامي مقدمات ونتائج. إن الإسلام بوصفه ديناً إلهي المصدر ، عالمي الهدف إذا ما استند النص الأدبي إلى هاتين الحقيقتين فيما يعالج من قضايا. فمن المرجح - بفضل الله - ألا تغادر نصوص مثل هذا الأدب عقل المتلقي دون أن تظفر باستجابة عاجلة أو آجلة كبيرة أو صغيرة ولا سيما المتلقي الكتابي ، الذي يقرأ في إنجيل متى قول المسيح عليه السلام : (لا تظنوا أني جئت لأنقض ناموس الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل)(18) ، وصدق الله العظيم القائل : ((وإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُم مٌّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)) [الصف:6].

ولا يظن الكاتب أن جهوده ستكون هباءً منثوراً ، أو تلقي بها الريح في مكان سحيق ، فإن الخطاب الوثني المعاصر قد آتى أكله ، وزرع سمومه في الكثير من عقول المسلمين ومناهجهم وآدابهم وبات تقليده ومحاكاته من مقومات المعاصرة عند الكثيرين (19). وعلى العكس من ذلك فإن المسلمين - يمكن أن يكونوا - بخطابهم المتوازي مع عقيدتهم - غازين لا مغزوين - مبادرين لا متفرجين ، أصحاب رسالة عالمية لا منفذي أوامر مشبوهة.
إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد شن حرب الكلمة ، قبل أن يبدأ حرب الأسلحة ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فقد بعث إلى هرقل عظيم الروم بكتاب يدعوه فيه إلى التوحيد واتباعه ، وذلك قبيل مغيب شمس الدولة الرومانيـــة فـي المشرق ، وأوشك هذا الجواب أن يغير سير التاريخ ، إذ استقبله هرقل بقبول حسن وكان آخـــر كلامه بعد حواره مع أبي سفيان - قبل أن يسلم - (قد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظــن أنـه مـنـكــم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدمه)(20).
وهـكـــذا فإن أكثر أهل الكتاب لم يكونوا غائبين عن مسيرة دعوة نبينا محمد عليه وعلى آبائه مـــن الأنبياء الصلاة والسلام ، ولقد تجاوز بعضهم مرحلة الأمنية التي تمناها هرقل (فلو أني أعـلـم أني أخلص إليه..) خلصوا إليه وأسلموا ، كسلمان -رضي الله عنه- الذي طوّف الآفـــاق وجاب القفار حتى استقرت به النوى بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأسلم، وكعبد الله بن سلام ، الذي قطع صلته باليهودية وعاد إلى ملة أبيه إبراهيم المتمثلة بدعوة محمد -صلى الله عليه وسلم- وسائر إخوانه الأنبياء [الأنبياء إخوة لعلاّت، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد](21) وصدق الله العظيم القائل : ((قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ومَا أُنزِلَ إلَـيْـنَـا ومَا أُنزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى ومَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) [البقرة: 136].
ولقد تحـســــــر ورقة بن نوفل ألا يكون حياً إذ يخرج الرسولَ قومُه ، كما أنه لم يكتم - بالرغم من تنصره - نسبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى دوحة النبوة المباركة: فقال للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقد أتت به خديجة -رضي الله عنها- إليه: »هذا الناموس الـذي نــزل الله على موسى« مبدياً استعداده لنصرته إن مد الله بعمره »وإن يدركـني يـومـك أنصرك نصراً مؤزراً«(22).
وإذا كان من [أولـى المسلمات أن وظيفة العمل الأدبي على اختلاف لغته وأشكاله هي ربط الأنا بالغير](23) فإن الكلمة تظل جسراً أساساً ومعبراً ضرورياً إلى عقول الآخرين. ومن أولى من الأدباء المؤهلين بما استوعبوه من فهم للإسلام وما أوتوه من موهبة أدبية وجمالية ، من أولى منهم باستشراف

هــذا الـدور وأداء هــذه الـرســالة؟ وإذا كان مستقبل الإسلام يشغلنا جميعاً فإن السؤال القمين بالإجابة : ما دور الأديب المسلم في تحقيق هذا المستقبل؟

مكتبة البحث :

1- البحث عن معنى - دراسات نقدية ، ص 85/66 ، د. عبد الواحد لؤلؤة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.
2- معاني القرآن للأخفش 1/6 ، عالم الكتب بيروت الطبعة الأولى 1405-1985 ، وفي المعجم الوسيط 2/697 ، الفَقَار: جمع فقارة واحدة من عظام السلسلة العظمية.
3- صِبغة بالكسر: الملة والدين وصبغة الله : فِطرةَ الله ، القاموس.
4- الحافرة : الخلقة الأولى والعودة في الشيء حتى يرد آخره على أوله ، القاموس.
5- في لسان العرب ، الأطر: عطف الشيء ، تقبض على أحد طرفيه فتعوِّجه.
6- الإسار: ما يقيد به الأسير ، المعجم الوسيط..
7- النقد العربي ، مداخل تاريخية حول اتجاهاته الأساسية ص 16 ، عبد المنعم تليمة - عبد الحكيم راضي ، دار الثقافة والنشر والتوزيع القاهرة 1985.
8- قـراءة جـديـدة لـتـراثـنا النقدي 1/428 ، والكتاب طبع نادي جدة الأدبي - أبحاث ومناقـشـات الـنـدوة الـتي أقـيـمـت فى نــادي جـــدة الأدبـي فـي الفـتـرة من 9 إلى 15/4/1409هـ.
9- المرجع السابق رقم 9 2/ 830.
10- النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص 326.
11- جدلية الخفاء والتجلي ، دراسة بنيوية في الشعر ، ص 22 ، دار كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة 1984.
12- الصورة في الشعر العربي ص 7 ، د. علي البطل ، دار الأندلس بيروت.
13 - الأسطورة والرمز ص 20، جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
14 - الأديب وصناعته، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ص231، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.
15 - المتنبي، رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، الـنـاشــــــر دار المدني بجدة ، مكتبة الخانجي بمصر 1407 -1987.
16 - أباطيل وأسمار ص 26-27.
17 - حركية الإبداع : دراسات في الأدب العربي الحديث ، ص 134 ، د. خالدة سعيد ، دار العودة بيروت ، الطبعة الثانية ، 1982.
18- إنجيل متى 5/17.

19 - راجـع للـوقــوف عـلـى مصداق هذه المقولة كتاب : أدب الردة قصة الشعر العربي الحديث ، جمال سلطان ، مركز الدراسات الإسلامية ، برمنجهام ، بريطانيا.
20- فـتـح الـبــــاري: شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، 1/31-33، رقـم الحديث : 7.
21 - المصدر السابق ، 6/478 ، رقم الحديث 3443 ، العلات : الضرائر ، وأولاد لعلات : الإخوة من أب وأمهاتهم شتى.
22- المصدر السابق ، 1 /3 ، رقم الحديث 3.
23- الكلام للدكتور شكري عناد ، مجلة فصول ، مجلد 2 عدد 4 ، 1982 .

شاعرٌ جدير بأن يُعرف

محمود مفلح

أحـن إلى تلك العصافير في الضحى   لها بين أغصان الشجيرات ملعبُ
إلى نـهـرها يـنـسـاب بـين سهولها   يـتـيـه دلالاً حيـثـمـا يـتـشـعــب
إلـى البـلـبل الظـمآن للنور والندى   ورغـم جـفـاء القـفـر يشدو ويطرب

لقد بسطت أسماء شعرية محددة نفوذها على القارئ، حتى أصبح لا يعرف سواها، ولعبت وسـائـل الإعلام المختلفة دوراً غير مسئول ولا منصف في تلميع أسماء ما كان لها أن تُلّمع، والتعتيم على أسماء أخرى كان من حقها أن تتوهج.

ولا أريـد أن أتـحـدث عن أساليب الحصار والتجاهل والإنكار التي تمارس عمداً ومع سبق الإصرار على الأدب الإســلامـي الـمـعـاصر ورموزه حتى أصبح القارئ - للأسف - يجهل الكثير عن هذه الرموز.

ولـكـن الـنـبع مهما ألقيت فوقه من حجارة ، لا بد أن يتفجر ، في أي أرض كانت.. مهما طال الزمن. ومــن هــؤلاء الشـعــراء الذين لم ينالوا حقهم من الشهرة والذيوع الشاعر خالد البيطار الذي ولد في مدينة حمص الـسـوريــة عــام 1942م ، والـــذي صدر له حتى الآن ديوانان ، الأول : عنوانه »أجل سيأتي الربيع« ، والثاني »أشواق وأحــلام« صــدر عــن دار البشير بعمان عام 1988.

والشـاعـر خالد البيطار له إسهامات واضحة وعميقة في ميدان التاريخ الإسلامي فقد كتب عن غـــزوات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعن الخلفاء الأربعة والصحابة الكرام كتباً ذاعــت وانتشرت نظراً لسلاسة أسلوبها وحسن تناولها وملاءمتها لروح العصر. ولا غرو في ذلك فالشاعر تخرج من كلية الشريعة في جامعة دمشق عام 1967م.

إلا أن القـلـيل من القراء يعرف أن خالداً شاعر مجيد، وأن له مكاناً مرموقاً في عالم الشعر، إذا ما تابع مـسـيـرتــه الأدبية وغذى نتاجه بقراءات متنوعة

ومستمرة. وشعر خالد يتسم بالعفوية المتناهية والعــذوبــة التي ترطب الشـفـاه وتنسـاب من خلال الكلمات لتتسلل إلى القلب دون استئذان. بالإضافة إلى الصدق الشعوري الذي يفرض نفسه لدى قراءة النص.
ولعل تجربة غربة الشاعر لسنوات امتدت أكثر من عشر ، بعيداً عن أهله وبيته ومسجده، كان لها أثرٌ واضح في هذا الصدق وفي هذه العذوبة ، وفي البعد كذلك عن الألغاز والطلاسم التي يختبئ خلفها شعراء اليوم ليواروا عجزهم وضحالتهم.

نأيت وقلبي لا يُصدّق أنني نأيت ولا يدري إلى أين يذهب
وليس له من حيلة غير أنه رأى من وراء الأفق ما هو أرحب

ثم تتوغل القصيدة في عالم من التفصيلات الصغيرة المحببة التي تشكل عناصر النص لتشع من خلاله وتمنحه هذه الشفافية وهذه البساطة وهو يتذكر ما كان من مواقف.

أطوف على الأحياء أرنو بلهفةٍ هنا كنت أمشي هاهنا كنت ألعب
أزور أخي، أحكي له ما أصابني فيأسو جراحي وهي حمراء تتعب
وأمضي إلى جاري وأطرق بابه وأبدي له شوقي وحبي وأعـــرب

ثم:

أمرّ على بيتي وأفتح بابه وتعرف زوجي مقدمي فترحب

انظر إلى الدقــة فـي اختيار اللفظة في البيت الثالث »أطرق« والبيت الرابع »أفتح«. صحيح أن النص يخلو من الرمز والغموض والصورة الشعرية التي يتعلق بها الشعر الحديث ، إلا أن دقة رسم المشهد والـتركيز على هذه العلامات الإنسانية الحميمة ، وانسياب التراكيب ، كل ذلك شفع للشاعـــر وارتقى بمستوى النص إلى أفق الشعر المؤثر الرقيق ، بالإضافة إلى عنصر التشويق الذي توفر في كل بيت من أبيات القصيدة. لقد افتقدنا مثل هذه العفوية في الشعر المعاصر، وأصـبـح لا بـــد للواحد منا من أن يستنفر قواه العقلية والنفسية وذاكرته التاريخية أيضاً كي يواجه الـنـص ويسـتـبـطــن عوالمه ، وبهذا تعددت الرؤى واختلفت المعايير.
إلا أن هذا لا يعني أن الشاعر أهمل الصورة الفنية في كثير من أبياته فها هوذا يصف بعض الناس ممن قست قلوبهم في صورة حركية موفقة.

وحولي أناس قساة القلو ب جفاة إذا ضحكوا أفزعوا

ولقد اختصر الشاعر في كلمتيه: »ضحكوا أفزعوا« معاني كثيرة ، ولعل هذا أبلغ -في نظري -من قول ابن الرومي :

وظننت حين رأيته متحدثاً قرداً يقهقه أو عجوزاً تلطم

وحين يتعرض الشاعر لوصف ألوان القمع وصنوف العذاب يشتد شعره وتحمر كلماته حتى تصبح جمراً.

تلك السجون فلا تعجب إذا صرخت فالهول في جوفها حقدٌ ونيران

لانت حجارتها من طول ما رويت من الدماء ورقت وهو صوان
أما السمة التي تفرد بها الشاعر خالد البيطار في رأي فهي براعته في وصف الطفولة والعلاقات الأسرية ، هذا الجانب الذي غفل عنه كثير من شعرائنا رغم أهميته وخصوبته ، فاستمع إليه وهو يصف حركات طفلته (عائشة) ذات السنوات الثلاث :

كثيرة القفز والتصخاب واللعب ولا تحس بأعياء ولا تعب
تمشي على أربع حيناً لتضحكنا مثل الخروف وأحياناً على الركب
وكم تحملق (1) عينيها لتفزعنا فنستعد ونمشي بُغية الهرب

ويستمر الشاعر في تصوير حركات ابنته المضحكة برشاقة لا تقل عن رشاقة هذه الطفلة الذكية المحببة.

كم ذا تقلد عند السير جدتها تخطو وتبطئ بعد الخطو والخبب
وتنحني ويداها خلفها ولها صوت يئن كمن يرقى على صبب!

أما ألعاب عائشة التى تحرص عليها:

ألعابها طفلة في المهد نائمة قد أسدلت فوقها ثوباً من القصب
وبلبل وقطارٌ صوته خشن وقِطةٌ وخروفٌ وافرُ اللبب
وجعبة حشرت فيها بضاعتها بعض الوريقات والعيدان والعلب

عالم الطفولة البريئة هذا عالم لا يستطيع أن ينفعل به ، ويجيد الحديث عنه إلا شاعر رقّ إحساسه ولان قلبه وصفت شاعريته وهذّب طبعه الإسلام. ولا يُنقص من قيمة هذا النص تأثره بقصيدة »أب« الذائعة للشاعر الراحل الأميري يرحمه الله.
ومن قصائد شاعرنا المتميزة في ديوانه »أشواق وأحلام« والتي تكشف عن هذا الجانب ، أعني الجانب الأسري ؛ قصيدته في وصف مشاكسات الأطفال ومداعباتهم من الصور اليومية التي لا يخلو منها بيت من بيوتنا والتي تمنح حياتنا طعماً وحيوية ولولاها لأصبحت البيوت قبوراً:

هذا يصيح أنا الكبير فمن يغا لبني فيأتيه صغير الجحفل!
يتعاركان فلا البساط بصبره يبقى بساطاً تحت ضغط الأرجل
حتى الوسائد والستائر أيقنت أن لن تكون عن العراك بمعزل
وأنا أنادي يا بني ألا اهدأوا وأقوم أضرب بعد طول تحمل

وبعد أن ينتهي العراك :

يأتونني وخلافهم في قشةٍ فأعيدها للمالك المتوسل
فيقوم صاحبه فيضرب رأسه بالباب بالجدران إذ لم أعدل!
ويقول لي أعطيته وحرمتني إني له ، سأميته بالفلفل

أية متعة وراء هذه المتعة؟ بعد قراءة النص كله ، وكم نحن بحاجة إلى أن يتوقف شعراؤنا عند هذا الجانب الإنساني في حياتنا وأن يعطروا أقلامهم بعبير

الطفولة ، فعالم الطفولة خصب ومثير ولا يليق وأن يسبقنا الغرب فيه خطوات وخطوات.
ولئن أجاد الشاعر في هذا اللون العاطفي الاجتماعي من الشعر ، فإنه أجاد كذلك في لون آخر وهو التنديد بالظلم والظالمين :

أيـهـا الـظـالـم فـاصـنـع مـا تـرى وتـجـبّـر وضـع الـقـيـد ثـقـيـلاً
واغـضـض الـطـرف عن القوم الألى رسخوا في الأرض وازدادوا قبيلا

ولشاعرنا كذلك قصائد رقيقة رشيقة ، فيها دعابة يصور فيها أيام »الجندية« وغيرها في أيام الشباب. وقصائد أخرى جادة وباكية أحياناً خاصة قصيدة »المعلم« الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو خارج من الفصل.
فحديقة شاعرنـــا مـتـنـوعة فيها الأشجار الباسقة والزهور العطرة والأعشاب الندية ولكل قصيدة نكهتها. والشعر لــدى خالد البيطار ليس ترفاً وإنما هو مسئولية ، وقناة من قنوات الوعي والفكر.
وأستطيع أن أقول مطمئناً: إن خالد البيطار شاعر الطبع الـسـلـيـم، والـعـذوبـــة، والنقاء، والأسرة ، والألفة ، والحب ، الحب الذي يصقل الطباع ، ويرتقي بالإنسان. ومـــا أجدر الـشـاعـــر أن يـتـابـــع خطواته الشعرية الرصينة، وما أجدر القارئ بأن يتعرف على هذا الصوت الشعري الذي لم ينل حظه من الشهرة والذيوع بعد.

الهوامش:

1- استعمل الشاعر الفعل »حملق« متعدياً ، وهو لا تستعمله العرب إلا لازماً ، وكذلك استعماله كلمة صبب بمعنى مرتفع بينما هي تعني : منحدر!
- التحرير -

شعر

جولـــة الســـكين على أعناق المسلمين

فيصل محمد الحجي

بـيـنـي وبـيـنـك أيـهـا السكـيـنُ بحـــر الدماء وذكرياتُ جـــــونُ
بـيـنـي وبـينك جثَّـة مـطـروحــةٌ بل ألــف مذبوح.. بل الملـيـــون
أسرفت في دمنا البريء وما لـنـا ذنبٌ نُـــلامُ علَيه.. إلا الـديـــن
يا عصرنا العاتي.. كأنك غابـــةٌ قد مات فـيـهـا العدلُ والقانـــونُ
أضحى قُضاتُكَ كالذئاب شراهةً وكـأنَّـنـا صـيـدٌ لهـــنَّ ثمـيـن...
حتَّامَ تكرعُ من دماءِ شعوبنا كرعاً شُـغِـفْـتَ بـه.. كأنّك نـــــون(1)
لو فاض بحرُ دمائِنا لـشـربـتَـهُ ولَعِقْتَ شاطئهُ.. وأنت قمـيـــــن
أتـصـونُ للإنسان كلَّ حقـوقـــهِ دوماً.. وحقَّ المسلمين تـخـــــون؟

كلُّ الشعوب حميتَها.. ومنحتَها فرحاً.. وشعبي خائفٌ وحزين
أنظرتَ للطفل الذبيح مضرجاً ودمٌ على (غمَّازتيه) وطين؟(1)
أنظرتَ للشيخ القتيل وعينُهُ شَخَصَتْ..ولم تذرف عليه عيون؟
أرأيتَ أكوامَ الرؤوس.. كأنَّها هَرَمٌ.. بناه الكافر الملعون؟
أرأيتَ أشلاءَ الضحايا بُعْثِرَتْ فهُنا يدٌ..وهناك لاح جبين؟
أرأيتَ أسرابَ النساء تشرَّدتْ هلعاً.. يطاردها خَناً ومُجُونُ؟
أنظرتَ للمسجون مُختنِقَ اللَّها لماَّ تضيقُ على الحشود سُجُونُ؟(2)
لو كان قلبُك صخرةً لتفطَّرَتْ لكنَّ قلبك ما اعتراه اللِّينُ
فَمَنِ الذي يُسدي لنا إشفاقةً غاليْ (الرخيصُ) وبوشُ؟ أو رابينُ؟
المجلس الأمنِ (المسيَّرِ) فَوَّضوا أَمْنَ الشعوبِ.. وليس فيه أمين؟
تتراقص السكين فوق رقابنا رَقْصَ التشفِّي.. والجنون فُنُونُ
هذي حضارتُكم.. وذاك حصادها والإيدز والإجرام والأفيون..
سقط الطِّلاءُ.. فكشَّرتْ عوراتُها لمَّا تعرَّى وجهها المدهون..
فإذا الجمال هو البشاعةُ نفسها حتى تساوى الصِّرْب والصُّرْبُونُ(3)
يا عصرَنا يا من تمارس عصرَنا بالنائباتِ.. كأننا ليمون..
يا عصرَنا يالؤمُ يا بغضاءُ يا حقدَ الصليبيِّين .. يا مأفون
آتونَ نحن.. ولن يجيئَكَ غيرُنا آتون.. مهما أضْرِمَ الأَتُّونُ..
نحن اشترينا الحُسْنَيَيِنْ وعَقْدُنا ماض.. وسيلُ دمائِنا عُرْبُونُ
أحفادُ (عقبةَ) لم تَزَلْ بصماتُهم تَسِمُ الزمانَ..فينتشي المحزونُ(5)
بيني وبينك موعدٌ للقائِنا ويكون ثالثَ جَمْعِنا (حِطِّينُ)
ويكون قاضينا (صلاحَ الدينِ) في حَزْمٍ به (أرناطُكُمْ) مرهونُ..
سنعيد (خيبرَ) جَذْعةً حتى ترى ويرى سواك الثأرَ كيف يكون
سنقول للسكين : حزِّي واقطعي فتجيب : لَبَّيكمْ أنا السكينُ..
لا تعذلُنِّي.. واعذلُوا من أطْبَقَتْ يَدُهُ عليَّ.. وحقدُهُ مجنون..
أو من جفاني مطمئناً للعدا ويَظُنُّ أنَّ الأُفْعُوَانَ حَنُونُ..
مَنْ شدَّني بيد الجَسُورِ أطعتُهُ ومَنِ ارتختْ يَدُهُ..فذا المسكينُ

الهوامش :

1- النون: الحوت
2- الغمازتان: جانبا الفم.
3- اللها: جمع اللهاة وهي قطعة اللحم المطبقة في آخر الفم.
4- الصوربون أو السوربون: من أشهر جامعات فرنسا.
5- عتبة بن نافع.

بيت القصيد

والنظام العالمي الجديد

مروان كجك

تولّى الزمانُ الكسُولُ البَلـيـدْ وجاءَ الـنـظـامُ القديمُ الجديـدْ
فَجِدُّوا الشِّفارَ وخُوضوا الغِمـا رَ ولا يفـتِـنـَنْـكُم صُعودُ اليهـودْ
سنهوي بهم في مَـتاهٍ سَحيــــ قٍ ونَخْـطِـمُ آنـافَـهـم بالحديـدْ
ولو حالفتهم شعـوبُ الضـــلا لِ وصالَتْ خـنـازيرهُم والقُـرودْ
ولو قــيلَ في كلِّ أرضٍ لـهـمْ صديقٌ حمـيــمٌ ، ورأسٌ وَدُودْ
ونَهْيٌ وأمــرٌ ومـــــاءٌ وجمــ رٌ وأنهارُ خمرٍ ، وجيشُ عبيـدْ
وخَسْفٌ وظلمٌ ، وجَوْرٌ وقهــ رٌ وسجنٌ رهيبٌ ، وقصرٌ مَشِيـدْ
وسلطانُ عَسْفٍ يُذِلُّ الـنـفـو سَ بكأسٍ وفَـلْـسٍ وثغرٍ وجِيـدْ
تـولّـى الـزمـانُ الذي لَـوَّثــو هُ وجاؤوا لـتـلـويثِ عصرٍ وليـدْ
وهـبُّـوا لـنـجـدةِ ظُـلـمٍ تَمادى فـيا ليت شِعري متى نستفيـدْ؟
فـمــاذا يُـريـدونَ مـنّـــا وما ذا يـؤرِّقـهـم إنْ حَفِظْنا العُهـودْ
وصُـنَّـــا الديارَ مِنَ المعتديــ ـنَ ورفَّتْ لنا في السماءِ البُنـُودْ
وعُــدْنــا لـديــنِ الإلهِ سِــرا عاً وسِرْنا على نهجِ جيلٍ رشيـدْ
أقــامَ الـصـــلاةَ وآتى الزكا ةَ وذلَّ لــربٍّ عـزيـــزٍ حمـيــدْ
تـولّـى الزمـانُ الذي أفسـدو هُ وهـبُّـوا لإفسادِ «بيتِ القصيـدْ»
فـقـد أرْعَبَـتْـهُـم جنودٌ شِـدادٌ وفَجرٌ يلوحُ ، ورأيٌ سَديــــدْ
وصـوتٌ يـنـافِحُ عن كلِّ حُـرٍ رٍ وزُلْفى لــربٍّ عظيمٍ مجـيــــدْ
وجـيـلٌ تـداعَـى لحقٍّ وطُهْـ رٍ ومِـيـلادُ نورٍ ، وعَزْمٌ أكـيـدْ
وفِتيانُ صِـدْقٍ جهاداً وعِلـمـاً وأنثى خَجُولٌ،وطِفلُ شهـيــدْ
ومـيـراثُ قـومٍ لـهم في الزمـا نِ مـفـاتـيـحُ عَزْمٍ تفكُّ القـيـودْ
فَـقُـل للـذيـنَ أدارُوا عـلـيـنـا حُـروباً لظاهاً يذيبُ الحديـدْ
سنـبـقـى وتمضُونَ عنّا بعيــداً وتـتـبـعُـكم لـعـنةٌ يا يَهـودْ

المسلمون والعالم

حتى تبقى جذوة الأمل

د. يوسف الصغيّر

إن من أكبر خصائص الجهاد فـي أفغانستان بروز الهدف النهائي للجهاد ، ألا وهو إقامة دولة إسلامية في أفغانستان ، بل تعدى ذلك إلى الحديث عن استمرار الجهاد لتحرير بقية بلاد المسلمين ، وهذا يعود لعدة أسبـاب ، منها الخاص بطبيعة الشعب الأفغاني وتدينه ، ومنها ما هو خاص بنشوء حركة الجهاد على أيدي أبناء الصحوة الإسلامية في عهد محمد داود ، ثم تحول الجهاد إلى حالة عـامــة بـعد الانقلاب الشيوعي والتدخل الروسي الذي تلاه ،

مع استمرار رموز الحركة الإسلامية فـي قيادة الجهاد ، وهذا يمثل تغييراً في هيكل القيادة التقليدي ، حيث إن سيطرة الدافع الإســلامي للجهاد مكن رموز التوجه الإسلامي من قيادة المعارضة ، فأصبح القادة إما علماء دين ؛ أو دعاة مرتبطين بالحركة الإسلامية ، أو قادة من العلماء المرتبطين بالحركة الإسلامية.

وكـانـت بدايــة الجهاد صعبة وقاسية ، ولم يكن القضاء على الشيوعية في ذلك الوقت إلا حلماً بعيد الـمـنـال عـنـد الـبعـض ، وبالتالي يكون الجهاد بالنسبة إليهم ورقة ضغط تقوي موقف المجاهدين عند إجراء المفـاوضات من أجل الوصول إلى حل سياسي للأزمة ، أو إلى حل وسط بين نظام شيوعي مـتسـلـط ونـظــام إسلامي متميز ، أما عند البعض الآخر فكان القضاء على النظام الشيوعي أملاً وهدفاً لا يمكن تحقيقه إلا بالجهاد المسلح ولو طالت المدة وكثرة التضحيات،وهنا لا بد من الخلاف بين الطرفين عند أول مصيبة تحل بالمجاهدين، وهذا ما حصل فعلاً، فما إن تمكنت الحكومة من إلحاق هزيمة كبرى بالمجاهدين قتل فيها عدد كبير من شباب الحركة ، حتى دب الخلاف بين رباني الذي يرى عدم الاستمرار في العمليات ، وحكمتيار الذي أصر على استمرار الجهاد مهما كانت التضحيات ، ومنذ ذلك اليوم وجدت الجمعية الإسلامية (رباني) والحزب الإسلامي (حكمتيار) الذي التف حوله شباب الحركة المتحمسون للجهاد وكان التدخل الروسي نقطة تحول بالنسبة للمجاهدين ، فقد أقبل الناس على الجهاد ، وتحولت الجمعية والحزب إلى أحزاب كبيرة ينضوي تحتها عشرات الألوف من المجاهدين ، ومع مرور الوقت بدأت تتضح الفروق بين الجمعية والحزب ، فبينما كانت هياكل الحزب وقياداته تتمحور حول حكمتيار ذي الشخصية القوية ، كان رباني يمثل قيادة اسمية لبعض قادة الجمعية »مثل أحمد شاه مسعود« ، وهذه العلاقة بينهما تحقق مصالح مشتركة فمن جهة رباني يمثل مسعود له القوة الكبيرة التي تعطيه وزناً كبيراً بين القادة في بشاور ، أما مسعود فإن رباني والجمعية تمثل له غطاءً تنظيمياً يحصل من خلاله على المساعدات القادمة من بشاور.

وأثناء الجهاد تكونت أحزاب عديدة بعضها ناتج عن خروج بعض القادة من أحد حزبي المجاهدين ، والبعض الآخر قام على أسس الانتماء القبلي ، أو الزعامة الصوفية ، أو تجمع يضم القوى القديمة التي أزاحها النظام الشيوعي من السلطة.

وعلى رغم التباين في الأهداف فإن جميع الأحزاب اضطرت إلى رفع راية الإسلام حتى التي لا تهدف إلى إقامة دولة إسلامية ، بل حتى التي تقاوم وصول الإسلاميين إلى الحكم ، وأصبحت أفغانستان مقسمة إلى مناطق نفوذ بين الأحزاب المختلفة ، وأدى انتشار الحزب الإسلامي في جميع أنحاء أفغانستان إلى أن يكون طرفاً في كثير من الاحتكاكات الناتجة من عمليات

تحديد مناطق النفوذ ، وكان اصطدام الحزب مع أحمد شاه مسعود في مناطق الشمال نتيجة لمحاولة مسعود تصفية القوى الأخرى في المنطقة وتشبث الحزب بمناطقه.

وعلى الرغم من الخلافات فإن الجهاد مضى بقوة في سبيل طرد الروس وإسقاط النظام الشيوعي ، وما إن انسحب الروس حتى بدأت بعض الأحزاب تحسب حسابات أخرى بالنظر لمستقبل أفغانستان ، وذلك بتأثير خلافات مؤجلة وتدخلات خارجية تحاول فرض واقع معين في أفغانستان والاطمئنان إلى صيغة مناسبة لتركيبة النظام الجديد والمتتبع للأحداث الأخيرة يجد الظواهر التالية :

1- تجمع بقايا الشيوعيين والمليشيات والإسماعيلية في تحالف ضمهم مع أحمد شاه مسعود حتى يُعْطوا وجودهم وتجمعهم صبغة إسلامية.

2- استمرار الرافضة في لعبة تبادل الأدوار التي يجيدونها ، فهناك حزب الوحدة الذي لا يخفي ارتباطه بطهران ، واستغل الأحداث الأخيرة حتى يدفع بأعداد كبيرة من مناصريه إلى داخل كابل ، ويظهر الحزب الآن تحالفه مع حكومة رباني ، وأسندت إليه 3 حقائب وزارية رشح لأحدها عبد الواحد سرابي نائب رئيس الجمهورية في عهد نجيب ، وهناك اتجاه آخر يقوده آية الله آصف محسني الذي يمثل دور التقارب مع أحزاب المجاهدين السنة.

3- العمل على إبراز بعض القادة الميدانيين ومحاولة جرهم لاتخاذ مواقف سياسية تخالف توجهات أحزابهم المعلنة ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك أحمد شاه مسعود الذي نجح الروس في عقد سلسلة معاهدات للهدنة معه ، وتمّ بنجاح إقناعه بأن يكوّن الغطاء الشرعي للمليشيات وبقايا الشيوعيين والباطنيين ، ويرفع كل هؤلاء علماً كتب عليه »لا إله إلا الله والله أكبر«.

4- محاولة إقناع زعماء المجاهدين بعدم دعم حكمتيار ، وقد تحدث المدير السابق لعمليات الاستخبارات الباكستانية العميد محمد يوسف أن الولايات المتحدة وزعت أموالاً طائلة على بعض الأحزاب والقادة الميدانيين من أجل إقناعهم بعدم الوقوف مع حكمتيار. ومن لا ينفع معه المال تستغل خلافاته القديمة مع حكمتيار في إقناعه ، بل والإيحاء بأن سياسات حكمتيار ستقود إلى تقسيم أفغانستان. وكل هذا مصحوب بحملة إعلامية عالمية ضد الحزب الإسلامي.

5- التركيز على التعدد العرقي وتكرار ذكر انتماء القادة العرقي بمناسبة ودون مناسبة.

6- الحرص الشديد على عرقلة أي بادرة لإصلاح ذات البين بين المجاهدين ، وخاصة بين مسعود وحكمتيار ، أو حكمتيار ورباني ، ويلاحظ مشاركة المليشيات وحزب الوحدة الرافضي في هذا الخطط بصورة رئيسية.

7- عدم وجود الزعامة القوية التي تجتمع عليها القلوب ويدين لها الجميع بالولاء ، وبالتالي كان التنافس هو العامل الأكبر في اختيار أي زعيم مؤقت ، وتكون النتيجة الاتفاق بالإجماع أو الأغلبية على زعيم ضعيف تكون بالطبع زعامته اسمية أو يكون واجهة لبعض الأقوياء ، وهذا عامل كبير من عوامل زيادة الفرقة والاختلاف ، وظاهرة خطيرة جرت على المجاهدين المصائب في السابق.

إن ترتيب الأمور يجري بدهاء شديد لدفع زعماء أفغانستان لقبول حل وسط يؤدي بمشروع الدولة الإسلامية أو خطر تقسيم أفغانستان على أساس عرقي بالنسبة للسنة (باشتون ، طاجيك ، أوزبك) إضافة إلى الأساس الطائفي (سنة ، شيعة).

إن اجتماع قادة المجاهدين وخاصة حكمتيار ومسعود كان كفيلاً بفرض الدولة الإسلامية ، وحيث إن هذا كان مستبعداً فقد استغلت جميع ظروف التباين في سبيل منع حكمتيار من إحكام قبضته على كابل ، وتم إدخال الجمعية في مخطط يهدف إلى إجهاض المشروع الإسلامي ، ومن الواضح أن رباني قد ساير مسعود حتى وصل إلى طريق مسدود ، اضطر معه أن يكرر مقولات سلفه مجددي ، فعلى الرغم من وقوفه في وجه طلب مجددي تمديد مدته إلى سنتين ، نراه يطلب تمديد مدته إلى سنتين، وبالطبع لم يحصل له ما أراد مع فارق أن مجددي أجبر على التنحي ، أما رباني فقد نجح في تمديد ولايته 45 يوماً من أجل عقد مؤتمر لأهل الحل والعقد لاختيار رئيس لأفغانستان.

وتتحدث الأخبار عن أن أكثر الزعماء حظاً هما محمد بن نبي محمدي وأحمد جيلاني. وبالطبع طرح جيلاني يقصد به قبول محمد نبي محمدي على أنه أفضل المرشحين.

نسأل الله أن يلهم قادة المجاهدين المخلصين الصواب ، فما أحوجهم إلى وقفة صادقة يتناسون فيها خلافاتهم ويقفون وقفة خالصة لله ليس فيها نظر إلى رضى مخلوق أو عصبية، وليس فيها مصلحة شخص أو هيئة، فإن الأمر جد خطير، والأمة الآن على مفترق طريق : إما أن يصان فيها حق الشهداء الذين ماتوا دفاعاً عن العقيدة ، أو تباع هذه الدماء كلها بثمن بخس.

إن الذي لم يقم بالجهاد والدفاع عن الأمة في حالة الكرب ليس أميناً عليها في حالة الرخاء، ومن هدم البناء لا نتوقع أن يقوم ببنائه، فهل نرضى أن يؤتمن الخؤون (المليشيات والرافضة ، والإسماعيلية والشيوعيون وغيرهم) ويخوَّن الأمين من المجاهدين. هل من وقفة صادقة حتى تبقى جذوة الأمل؟!

جذور الصراع :

الصليب الأرثوذكسي، الغرب المتحضر، المسلمون »الهمج«*!

د. عبد الله عمر سلطان

عندما ألقى جورج بوش خـطــابه الانتخابي الشهير في مدينة هيوستن الأمريكية ركز على نقطة جوهرية تمثل برنامجه الـعـريض للسنوات الأربعة المقبلة (في حالة انتخابه).. كانت هذه النقطة الرئيسية تدعو إلى الحـفــاظ عـلـى القيم الأخلاقية التي تكفل بقاء أمريكا قوية ورائدة في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ، لـقــد قـضـى الأمريكيون على عدوهم الشيوعي، وبـدأت مـعـالـم نظام عالمي جديد تبرز وتزداد وضوحاً.. وعلى المنتصر أن يركز على تقوية الجانب العقائدي/الأخلاقي ليضمن البقاء في القمة ، وحصر الرئيس الأمريكي هذه المبادئ في العقيدة (اليهودية/المسيحية) .. ولـيـؤكــد على هذا المفهوم هاجم منافسيه الديمقراطيين الذين نسوا الله في حملتهم الانتخابية. وأكــد مــرة أخــرى خلال استقباله لزعماء اليمين الديني على حقيقة هامة وهي: »أنـنـا شـعـب مـتـديـن بفطرته، وأننا ندين بتفوقنا للمبادئ اليهودية/النصرانية«.. لا أدرى لماذا تراءى أمامي سلوبــودان مـيلـوسوفيتش الزعيم الصربي وهو يخطب في المليشيات الصربية متفوهاً بعبارات مشابهة تتحدث عــن المـبـادئ و»الرسالة« التي كان على الصرب القيام بها لحماية رسالة يسوع في الوقت الذي يقوم الدلـيـل الساطع على التعاون اليهودي /الصليبي لإنجاز مهمة »جنود الرب« في البوسنة والهرسك..
صـعود اليمين الصليبي إلى موقع القرار في الغرب أمر لا يناقش في تفشيه وظهوره إلا جاهل أو مـكـابر، وهو يستخدم ذات المفردات ونفس الرسالة مع اختلاف في التفاصيل والوقائع، أمـا عـلاقـة هـذا الـيـمـين بالصهيونية واليهود فهي مادة دسمة لكثير من البحوث والكتب التي صدرت خلال العقد المنصرم. إن إلقاء الضوء على صعود اليمين الأرثوذكسي وعلاقته العضوية بالصهيونية موضوع حيوي يفـهـم الخــط البياني والجذور الراسخة التي أفرزت المذبحة القائمة على قدم وساق فـي البلقان.. ومـن هــذا الاستعراض سيتبين لنا خطوط متشابكة وملامح شبيهة بصعود التيار الصليبي الأصولي فـي أمـريكــا والـغـرب عموماً ، ثم بالعلاقة الوثيقة لهذا التيار باليهود الصهـايـنــة، حـيـث إن الجمـيـع يلتقون على حرب الإسلام ومعتنقيه، وهــو الـعــدو القديم/الجديد الذي يأبى أن يلبـس قـيـود الذل أو يسلم الرقاب للجزر والصلب.. ، لقد حملت مأساة البوسنة والهرسك. دروساً كثيرة وإضاءات هامة للفرد المسلم اليوم لمجتمعات العالم الإسلامي ، لكن أبرزها على الإطلاق هي تلك التي تكشف في حقيقة الصراع الدائر المكشوف على امتداد الساحة الإسلامية

دون مواربة أو شك ، حيث إن المذابح والحروب والكوارث منكبة بعد تصفية الحساب الغربي/الشيوعي على هذا الكائن المسلم رغم وحشية وبشاعة ووقاحة المجرمين ، وتنظر فترى حقد الصليبيين واليهود واضحاً في مأساة البوسنة أيما وضوح ، حتى إن الصحف الغربية - على ما تحمه له من سوءات - شهدت ضد مجتمعاتها وقادتها ورموزها ، وسجلت جزءاً من المأساة حيث إن المسلمين قصروا في عصر التهميش والتبعية حتى عن وصف المجزرة التي تستهدفهم فرداً فرداً.. ، إن توالي الصور المأساوية ، ومعسكرات الاعتقال ، والتمثيل بالجثث ، وحرمان الفرد من آدميته ، وتشريد الملايين ، وزرع الخوف في صدور الأطفال وعيونهم ، واغتصاب المسلمات أصبحت حديثاً عادياً لا يثير في المسلمين - فضلاً عن غيرهم - موضع ألم أو لحظة غيرة عابرة.. ، ها هم المتحضرون البيض والشعوب الراقية في أوربا التي تلهث لأنات الكلاب والقطط ، وتذرف دموع التماسيح حزناً على مصير الدببة في أقاصي القطب الشمالي ؛ ترى بشراً يعيشون محرقة إنسانية مكتملة الفصول.. دون أن تخرج مظاهرة احتجاج - وما أكثرها عندهم - أو يتحرك قطاع شعبي يسعى فعلاً لإنهاء المأساة الإنسانية ، والإنسانية فقط... ، لقد أتت قصة البوسنة الحزينة في الوقت الذي كشف الغرب بعد انتصاره على الشيوعية أن شرعيته ومنطلقاته تحمل سمات دينية/صليبية لا يمكن تجاهلها أو إنكارها ، كما أكدت الأحداث المتوالية أن الحلف الغربي/اليهودي في المنطقة مستمر لأنه حلف حضاري قائم على أسس ومبادئ وثقافة مشتركة.. وكأننا كنا بحاجة إلى مشهد كهذا لينقل لنا دليلاً مادياً قوياً وليؤكد هذه الحقيقة ثم ليزيل الغشاوة عن بعض أبناء أمتنا الذين جَهِلوا أو جُهِّلوا.. أو تجاهلوا..
نقلت مجلة أمريكية دون تعليق التآمر الصليبي غير المبرر منذ اشتداد الأحداث فقالت : »التصرف غير المبال للولايات المتحدة زاد من لهيب النار المشتعلة وبدا وكأنه جزء من سلسلة متصلة قوامها السلبية المتعمدة ، فعندما أرسل سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي السابق كوسيط للأمم المتحدة في النزاع الجاري قال إنه لا داعي لإرسال قوة أجنبية لإجهاض الحرب التي كانت بوادرها في الأفق ، لقد كان الصرب بحاجة لتصريحات كهذه من قبل أجانب »يزورون سراييفو حتى يشعر سلوبودان ميلوسوفيتش وزعيم صرب البوسنة رادوفان كارادیتش بأن القوى الغربية ولا سيما الأم المتحدة لن تقف في طريقهم.. ، كما كانت إشارات جيمس بيكر للحفاظ على الاتحاد اليوغسلافي وعدم تطبيق العقوبات على بلغراد مؤشراً سيئاً آخر.. ، وكذلك إن زيارة ميتران في بداية الصيف المنصرف لم تكن أكثر من زيارة دعائية حين أبدى تعاطفه مع إطعام المدنيين المحاصرين ، واعقب هذه الزيارة زيارة مماثلة لوزير الخارجية البريطاني الذي طمأن الصرب بأنه لا يوجد دولة تتبنى التدخل العسكري لإنهاء الوضع الراهن(1)..

أما أكثر التصريحات إثارة فقد جاءت على لسان رئيس قوة الأم المتحدة الجنرال ماكنزي الكندي الجنسية حينما ساوى بين الجلاد الصربي والضحية البوسني ، وهدد بأنه إذا لم يوقف الجانب المحاصر طلقات الرصاص فإن المعونات الإنسانية لن تجد طريقها للمدنيين ، وفي الوقت الذي كان فيه الصرب يحصلون فيه على الإمدادات الضرورية عن طريق الحدود المفتوحة على جمهورية يوغسلافيا ؛ فإن المسلمين كانوا يعانون المجاعة التي كان الصرب يحرصون على انتشارها وذلك بأن يخرقوا كل وقف إطلاق نار حتى لا تتمكن فرق الإغاثة في إتمام مهامها.. لكن أكثر المسؤولين الغربيين تخليطاً كان وزير الدفاع الأمريكي الذي سأل المراسلين بدل أن يسألوه »من هو العدو؟ كيف سنحدد (رسالة) تدخلنا العسكري ، من نحارب؟ البوسنيون؟ الصرب؟ نحن لا ندري!!(2) وحينما سأل مارلين فيتزواتر الناطق باسم البيت الأبيض عن موقف سيده أكدت إجاباته أن الإدارة الأمريكية ليست حاضرة أو جاهزة حينما يطرح اسم البوسنة!! بيل كلنتون ونائبه في انتخابات الرئاسة آل غور طرحا مشروعاً لضرب المواقع الصربية بالطائرات لتأمين وصول المساعدات الإنسانية للمدنيين الأبرياء.. هذا المشروع وصفه المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض بأنه مهتز ، ولا ينم عن وعي سياسي خارجي لدى المرشحين المذكورين ، لكنه ما لبث أن سحب هجومه العلني حينما أخبر أن معظم القيادات الرئاسية تتبنى طرحاً شبيهاً بطرح كلنتون ، مع استثناء الجاهل دك تشيني وزير الدفاع !!(3)

وكلما زادت الأزمة ظلمة كان الزعماء الغربيون يكتفون بالشجب والكلمات البراقة ، والقذائف تدك ما بقي من أجساد ومشاعر البوسنيين »حينما واجهنا واقع معسكرات الموت الجماعي والقطارات المملوءة باللاجئين المبعدين لم نفعل شيئاً« هكذا قال وزير الخارجية البريطاني السابق اللورد أوين لمجلة التايم : »نبدو أننا قررنا أن نعيد مأساة قتل اليهود في الحرب المنصرمة.. لكننا اليوم بإمكاننا أن نحدد بدقة متناهية عبر أدوات التجسس والأقمار الصناعية مناطق المدفعية الصربية وندكها سواء من خلال الطائرات المنطلقة من قواعد حلف الأطلنطي أو حاملات الطائرات ، هذا يمكن تنفيذه خلال ساعات وليس أياماً.. بمجرد أن يصدر قرار حازم من مجلس الأمن«. هذه المواقف الغربية المتراكمة والمتعددة ليست إلا دليلاً إضافياً ، فحينما سئل بوش عشية قمة ميونيخ عن سبب إحجامه عن التحرك في ظل الوضع المتردي أجاب قائلاً: إنه ليس مستعداً لأن يرسل »الأولاد الأمريكيين« في مهمة كهذه.. وتعلق لاسلي غليب في النيويورك تايمز قائلة: إن الغرب ما كان ليتخذ هذا الموقف اللامبالي لو كان ضحايا المجزرة من النصارى.. ولو كانوا كذلك إذن لانتفض العالم الغربي وتحرك الضمير النائم وترجمه ذلك إلى تحرك

عسكري واقتصادي وسياسي بدلاً من حالة النعاس الثقيل التي يغط فيها المجتمع الدولي«!!
أما فرانسوا هيسبورغ رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن والذي يحظى بسمعة دولية فقد لخص القضية بقوله : يوماً بعد يوم يتأكد لكل المراقبين أن الحل العسكري هو الحل الوحيد لهذه المشكلة ولا سيما في ظل أجواء التقاعس الراهنة ، وأبرز الوسائل هو إعطاء السلاح للبوسنيين حتى يدافعوا عن/أنفسهم مع توفير قوات أرضية دولية لتكوين قاعدة انطلاق للجيش البوسني..«(4). لكن السؤال الذي يطرحه توم بونت مراسل مجلة النيوزويك : »من لديه الاستعداد والعزم للقيام بذلك؟ إن الرئيس الفرنسي الذي زار سراييفو في تحرك مسرحي يقول إن الحل العسكري مستبعد.. لأن المعضلة من سيقدم الجنود المطلوبين.. بالتأكيد ليسوا البريطانيين«..
ويتساءل الآن كلارك وزير الدفاع البريطاني السبق : »كيف نستطيع أن نبرر لعوائل الجنود المقتولين أن أبناءهم لم يموتوا في سبيل الملكة أو الوطن بل لمنع الصرب من قتل المسلمين«.. إنه الكشف عن المخبوء في الصدر بكل وضوح.. فالبريطاني الصليبي لن يقبل أبداً أن يفقد الجيش الملكي ضحية في سبيل هدف لا يتصور.. منع قتل المسلمين هكذا بكل وضوح.. بل بكل وقاحة بعد إزالة غشاء الإنسانية والشرعية والعدالة التي يرفعونها متى ما أرادوا..!
العديد من الغربيين شهدوا من منطلق إنساني بحت على أن الغرب المنافق يكتفي بإطلاق التصريحات المعسولة ، وهو عازم على إزالة المسلمين في البوسنة من الخريطة الجغرافية كما قالت مجلة الإيكونمست البريطانية: »وداعاً.. وداعاً البوسنة«.. شارلز لان أضاف : »إن النفاق الغربي وإغراق العالم وتضليله ليس وقفاً على السياسيين إنه يشمل رجال الإعلام بل الناخبين.. إنه موقف عنصري هذا الموقف من أحداث البوسنة والصومال.. إن الحضارة الغربية قالت بصوت مرتفع : »يستحيل أن يحدث ذلك مرة أخرى« حينما انتهت الحرب الكونية الثانية وكشفت فظائع النازي بحق اليهود.. لكن يبدو أن معسكرات اعتقال اليهود تختلف عن تلك التي نراها في البوسنة.. لكن هذا مخجل حقاً.. مخجل بحق الغرب وزعامة جورج بوش الذي سيجد نفسه مضطراً لعمل شيء ما في المستقبل القريب«(5).. هذا التخاذل والموقف الخافت الصادر من بعض الأصوات ففي الغرب تتساءل كيف تختلف جريمة متماثلة حسب هوية المذبوح ، لكن الجواب بسيط وجوهري حيث إشارة الرئيس الأمريكي عن جذور الثقافة الغربية الراهنة وشقيها النصراني واليهودي ، أما المسلمون فموقعهم معروف مسبقاً بالنسبة لهذه الثقافة/العقيدة...
ولعل أقوى المواقف الصادرة عن هؤلاء القلة من الغربيين الذين لم يتحملوا هذا الإجرام الغربي ، كان موقف جورج كيني المسؤول عن يوغسلافيا في

وزارة الخارجية الأمريكية ، فقد استقال من منصبه احتجاجاً على موقف واشنطن المتخاذل من القضية اليوغسلافية ، ولم يكتفِ كيني بذلك ، بل قام بفضح الدور الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً ، وذلك بالكتابة في افتتاحيات الصحف ، وإجراء مقابلات متعددة هاجم فيها المؤتمرات التآمرية التي ترعاها القوى الغربية لتصفية المسلمين في البوسنة باستخدام العبارات والآليات الدبلوماسية ، ومنها مؤتمر لندن.. »الحقيقة المجردة هي أن مؤتمر لندن لحل القضية اليوغسلافية قد أعطى الضوء الأخضر للصرب لإنهاء ما بدأوه ، والحل الحقيقي والسهل يعرفه الجميع ويدركونه وهو تسليح البوسنيين ليدافعوا عن أنفسهم ، ثم عن قطعة الأرض التي يقفون عليها ، ومن ثم تحرير الأراضي التي سلبت منهم...«.
هذه بعض الدلائل التي تجمع على نتيجة واحدة ومحصلة نهائية : حقيقة المعركة وجوهر المشكلة في جانبها العقائدي بين المسلمين والنصارى..
أما اليهود فقد كان دورهم في يوغسلافيا السابقة والحالية يحمل جذوراً مشتركة كما يقول محمد خليفة : »في نهاية القرن المنصرم كانت صربياً جزءاً من الدولة العثمانية وكذلك كانت فلسطين ، وكانت الحركة القومية الصربية الوليدة تكافح لبناء دولتها تحت شعار »إحياء مملكة دوشان أو صربيا الكبرى« وكانت الحركة الصهيونية ترفع شعار إحياء مملكة داود أو إسرائيل الكبرى ، وبقدر ما كانت الفكرة الصهيونية أسطورية وعدوانية ولا ترتكز على أساس شرعي ، بقدر ما كانت الفكرة الصربية لا تقل عنها عدوانية.
لقد تميزت الحركتان بخصائص عرقية وتاريخية وسياسية متقاربة ، كما تميزتا بعدائها الشديد للإسلام والمسلمين لا سيما أنهما كانتا تكافحان ضد الدولة العثمانية التي فضلاً عن أن الطرفين يعتبران أن المسلمين هنا وهناك ، يحتلان كل أو بعض أراضي الوطن القومي المزعومة ، فالصرب يعتبرون الألبان المسلمين في كوسوفو محتلين وافدين على المنطقة التي يسكنونها ، وكذلك يعتبرون المسلمين السلاف في البوسنة والهرسك صرباً تمت أسلمتهم بالقوة من جانب الأتراك ، ولا يمكن الاعتراف بما نتج من هذا التحول القسري خصوصاً من ناحية هوية الأرض التي يسكنونها ، وكان اليهود يعتبرون الفلسطينيين (المسلمين) وافدين ومحتلين لأرض الميعاد والتوراة..« وحينما قامت المملكة الصربية الكرواتية وأسند الملك فيها إلى أسرة قره جورجوفيتش الأرثوذكسية المتعصبة كان اليهود هم أقوى الأقليات فيها ، كما هو الحال في أمريكا الآن »وحين أعلنت لندن وعد بلفور عام 1917م كانت بلغراد أول دولة ترحب به وتطالب بتنفيذه وجعلته بنداً رئيسياً في سياستها الخارجية«.. لقد تجلى هذا التعاون التاريخي في عالم اليوم حيث إن إسرائيل تمد الصرب بالسلاح والعتاد للقيام بالطور الأخير من مذبحة المسلمين في البوسنة الذي أصبحوا فلسطيني أوربا ، مع ما عرف من تغلغل

يهودي /إسرائيلي في جسد الدولة اليوغسلافية الحديثة وتعاون مع الجيش اليوغسلافي الاتحادي ظهرت نتائجه في المجزرة الحالية التي تراقبها دولة الصهاينة بارتياح شديد...
إن الدور الصليبى الصهيوني يعي حقيقة المعركة وامتداداتها الحاضرة والماضية والمستقبلية ، كما أنه يدرك تماماً أن المعركة الدائرة وهي مع الإسلام كدين وهوية ، فالمسلم البوسني غريب منسلخ عن كثير من أسس الإسلام ومبادئه بفعل عوامل تاريخية وواقعية متشابكة ، والمشاهد التي تعرض على العالم كل صباح ومساء تثبت أن مواصفات الأصولية وملامح »التطرف« لا تنطبق على مسلمي البوسنة كما يفهمها الغرب ، فالرجال أوربيو الملامح ولا تظهر لحاهم الكثة »الشهيرة« أو جلابيبهم البيضاء جلية.. ولا يسيرون وهم يحملون المصحف أو وهم يرددون : الله أكبر.. ، إنهم أبعد ما يكونون الآن عن ذلك بعد عقود من الغسيل الفكري والغربة العقدية.. أما النساء فلا يبرز الحجاب يغطي رؤوسهن حتى يشن الغربيون هذه الحرب عليهن ، ولا يكترث بحملة الاغتصاب المنظمة التي تحطم كل ذرة إنسانية في صدورهن.. ، المسلمون في يوغسلافيا لا تنطبق عليهم »المواصفات والمقاييس« الصليبية أو مشتقاتها العلمانية في عالمنا الإسلامي.. مجلة النيوزويك الأمريكية تؤكد ذلك حيث تقول : »الرجال يشربون الخمر.. والنساء لا يرتدين الشادور أو الحجاب..«، الإيكونومست المتعصبة تقول : »لا يمكن إطلاق لفظ أصوليون على هؤلاء الآن ، إنهم أقرب إلى العلمانية منهم إلى الإسلام«.. ومع هذا يظل البعض يتغاضى عن حقيقة موقف الغرب المتغطرس مع من تحمل خلاياه جذوراً إسلامية أو صفات وراثية تربطه إلى هذا الدين ، أنت متهم على أي حال وحيث ما اخترت أن تقف أو تنحاز.. إذا كنت مؤمناً بالإسلام منهجاً ودستور حياة.. فأنت بالتأكيد أصولي »عفن«!! وإذا اخترت أن تؤدي الشعائر دون أن تحمل لوناً أو طعماً أو رائحة تَمَتُّ للإسلام ، فأنت غير متحضر أو قابل للاندماج الحضاري ، إذا قررت أن تتأمرك أو تتغرب ، أو تصبح علمانياً متشنجاً ، فستظل قابلاً للانحراف عن هذه المبادئ ، ودخيلاً على الفكر الغربي الذي طوّر هذا الطرح ، والذي ينظر بازدراء حتى لأولئك المتشبثين بركابه ، المتمسحين بقداسته ، أنت في أحسن الأحوال »ذنب مرحلي« أنت مسلم.. إذن أنت عدو مهما انسلخت أو تووددت أو ابتذلت.. هذه نظرة الغرب ونظرة مفكريه وقادته.. بل أفراده البسطاء.. أنت »الآخر« الذي لا يمكن أن يكون الأصل..
هذا ما يفسر الحملة الوحشية البشعة في البوسنة ، أو في أرض إسلامية أخرى ، حيث ينظر الغرب إلى القضية من منطلق صراع الحضارات والأجيال ، ويتغافل منظرو اللحظة الآنية والحدث اللاهث عن هذه المنطلقات ، فضلاً عن المضللين والمنافقين والمأجورين..

هذا المنظور الغربي المزدوج تؤكده أكوام التصريحات والمواقف الغربية منذ انفجار المأساة حتى الآن ، حقد صليبي يهودي على الإسلام بغض النظر عن تخاذل أبنائه وتميُّع معتنقيه ، فربما انتفض الأطفال والشباب وهزهم تيار الصحوة الإسلامية الذي لا يعرف حدوداً أو حواجز ، إنهما خطان متشابكان ورافدان أساسيان.. »الغرب المتحضر« بكل تراثه ومصطلحاته وعقائده وتفوقه وأسلحته ومصالحه ، أمام المسلمين الهمج الذين يريدون أن يعيدوا عجلة التاريخ إلى الخلف ، ويصبغوا القرن الحادي والعشرين بمخلفات عصور الظلام وأساليب القرون الوسطى ، كما يدعون ويروجون. ومهما حاول هؤلاء إسقاط دبلوماسيتهم وأساليبهم الماكرة.. فالكلمات والشهادات تخرج قسراً من أفواههم لتؤكد هذا المفهوم المتشابك بين الحفاظ على المكتسبات وإذلال »الآخر« أي المسلم الذي لا زال يبحث عن هويته وذاته.. إنها بعض الشهادات :

»خلال الحرب العالمية الثانية كان الهدف دك المنشآت الاستراتيجية التي تؤثر على مسيرة الحرب.. أما في هذه المجزرة فإن المستهدفين ابتداءً هم المدنيون ، إنه الإنسان« ونضيف إنه الإنسان المسلم«(6).

»لقد هيأ التلفزيون اليوغسلافي الصرب للقيام بهذه المجازر حينما بدأ العام الماضي عرض أفلام مهيجة مشيراً إلى المسلمين بالأصوليين والمتعصبين والخمينيين وأنهم وراء كل أعمال الإرهاب في العالم ، وأنهم يقومون بذبح أطفال الصرب ليقدموهم طعاماً للحيوانات الجائعة في حديقة حيوانات سراييفو!«(7).

»أخشى أن تثمر جهود حكومة البوسنة عن قيام دولة إسلامية في وسط أوربا ونحن الكروات (الكاثوليك) لا نرضى بهذا..« رئيس كرواتيا الحالي (8).

»كل المسلمون - بمن فيهم الضحايا البوسنيون - عرب قذرون يمسحون أدبارهم بأيديهم«(9) نقلاً عن مسؤول صربي.

»معلومات متواترة مصدرها واشنطن تؤكد على أن القوات اللبنانية بزعامة سمير جعجع قد أرسلت 3 شحنات من الأسلحة إلى القوات الصربية التي تحارب المسلمين في البوسنة والهرسك ، وأن قيمة هذه الأسلحة تزيد على 30 مليون دولار وتضم أسلحة خفيفة ومتوسطة ودبابات وقطع مدفعية من عيار 120 ملم ، وأنها تجد طريقها إلى قوات الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش وإلى المليشيات الصربية في البوسنة«(10)...هذا هو دور إخوننا في العروبة كما يقولون ، دور يلعبه بطرس بدبلوماسية وآخر يمارسه تلاميذ آل جميّل ببشاعة وغلاظة المليشيات الكتائبية...

إن أسلوب تعامل الولايات المتحدة مع القضية البوسنية اتسم باللامبالاة منذ الإشارة الأولى لاندلاع النزاع ، لقد أعطت أمريكا الضوء الأخضر لصربيا للقيام بحملتها العرقية عن طريق الإبادة ، بينما تكتفي بالتحرك الدبلوماسي الهزيل ،

لقد اكتفت الإدارة الأمريكية برعاية جولات عن المفاوضات العقيمة ، ولا زالت تحاول أن تظهر بصورة الحكم العادل حيث تلقي باللوم على جميع الأطراف بما فيهم الضحايا المسلمون ، إنها في الحقيقة تضغط على الحكومة البوسنية لكي تجلس على مائدة المفاوضات مع الصرب الذين يجب أن يحاكموا كمجرمي حرب وذلك للقبول بالأمر الواقع المؤلم..« وهذه الشهادة لجورج كيني الذي أشرنا إلى استقالته من وزارة الخارجية الأمريكية احتجاجاً على النفاق الأمريكي (11).
إن الغرب يسعى للضغط على تركيا العلمانية للقيام بجهد إنساني بينما ترى تركيا أن تجاهل حقيقة الوضع والمأساة ويؤدي إلى شعور المسلمين بأن الحرب حرب صليبية جديدة ، ويمكن أن يفضي إلى حروب دينية مشتعلة..أي بمعنى آخر أن المسلمين سيكتشفون حقيقة المجابهة...(12).
»لقد أثبت المجاهدون العرب شجاعة فائقة ، إنهم هنا من أجل وقف ذبح إخوانهم المسلمين كالشاة كما يقول أحدهم ، والجنود المحليون يبدون إعجابهم بهؤلاء لإقدامهم وقدرتهم على إلقاء الرعب في قلب الصرب الذين ينكمشون حينما يسمعون صرخة المجاهدين حينما يستغيثون بالله«(13).
»على المسلمين أن يقبلوا بالتعايش الكونفدرالي مع كانتونات الصرب والكروات حتى لا تقوم دولة إسلامية كبرى تهدد استقرار أوربا..«(14).
»نحن نقاتل من أجلكم.. نحن خط الحماية الأول أمام المسلمين المتخافين الذين يشكلون عدواً مشتركاً لكم.. كما لنا«(15).
هل تكفي هذه الشهادات؟ أم نحن بحاجة إلى برنارد لويس المستشرق اليهودي الحاقد وتلامذته من أمثال فؤاد عجمي الذين تورمت أكتافهم من الأجر الحرام وهم يتحدثون ويسهبون وينظرون ويسقطون.. حول همجية المسلمين وتعصب العرب؟.. لقد صمتوا تماماً عن »حضارة الصرب« و»رقي الغرب« وشجاعة اليهود والنصارى في تحمل صور ومشاهد الهلع المعروضة لأشهر..
وهنا لا مانع من نقل مقطع وجيز لذئب صغير يحاول أن يشتهر حينما يؤكد انضمامه إلى قافلة لويس /عجمي. هذا النكرة الذي أبتليت عيوننا به يفند الرأي الساذج الذي يرى المعركة معركة دين ، وقتال عقيدة ، فيقول : »أفتى أحد الزملاء بأن لإسرائيل ضلعاً في الحرب على مسلمي البوسنة والهرسك وهذا لا يكون صحيحاً لتكتمل عناصر الصورة المرسومة في رؤوسنا: نحن المسلمين في جانب والعالم الغربي الصليبي في جانب آخر ، وما دامت إسرائيل هي همزة الوصل العدوانية التي تربط الغرب بنا فهذا ما يملك إلا أن يوجد لها دور في حرب البوسنة«(16) .
والغريب أن شواهد المعركة، بـل تــورط الـقـــوى الغربية العقدي والعملي مصاحباً بالدور الإسرائيلي هو حديث الأعداء أنفسهم الذين وجـــــــدوا في

هذه المنابر المشبوهة والصحف الراقصة على جراح المأساة ، كتاباً لا يملكون من الشجــاعة ذرة ، أو من الاطلاع نصيباً، أو مــن الـمـوضــوعـيــة حرفاً.. هم وحدهم القادرين على فهم المعضلات وتحليل المشكلات والتصدي للقيام بدور ابن الـعـلـقـمــي بصورة يخجل منها برنار لويس ، ويسقط عن عرشه الاستخباراتي/الاستشراقي، الأراجوز الأكاديمي : فؤاد عجمي..
إن هذا التلاعب بالألفاظ والأفكار لا يصب إلا في خانة واحدة ترمي إلى تجريد الصراع من بعده الديني الذي تؤكد الحقـائـق المـتـراكـمـــــة جذوره ومنطلقاته والتي تحاول أن تصبغ القضية بمزيج من العرقية المجردة النهمة، أو الـتـجـــاوزات والطموحات القيادية التي لا تعرف انضباطاً أو كبحاً للتجاوزات..
لقد لحظت مواطنة أمريكية قواعد اللعبة التي تسير الصراع وما يحكمها من قوانين عقدية تجـتـمــع فيها الصليبية واليهودية ولا سيما في صورة رأسي الملتين المنحرفتين: أمـريـكـــا وإسرائيل. كتبت روما كروكر إلى مجلة الواشنطن ريبورت في عدد اكتوبر 1992 قائلة:»حقاً إن الصرب يعتقدون أنهم يكسبون احترام الولايات المتحدة حينما يمارسون القتل الوحـشي باســم »التطـهـيـر الـعـرقـي«.. والسبب هـــو أن قتل شعب مسالم وتشريده وإفنـاءه واستبداله بمهاجرين، غرباء هو نفس الأسلوب الذي أوجد الولايات المتحدة وكونها ، لكن المجرمين الذين قاموا بهذه الجريمة كانوا ولا زالوا ينادون باسم »الرواد«.. وهذا هو نفس السبب الذي يجعل دولة كأمريكا تتعاطف مع شعب قام بنفس الأسلوب هو الشعب الإسرائيلي الذي لا يزال يقال عنه أنه الشعب الذي استصلح الأرض،..غداً سيطالبنا الصرب بمبلغ 10 بلايين دولار ضمانات للقروض من أجل مشاريع توطينية فـي الأراضي التي يحتلونها اليوم«.. إنه المثلث الذي قام واشتهر ضلعاه الشريران أمريكا وإسرائـيـل.. أما الضلع الثالث فهو كل قوة أو تيار يسعى لحرب الإسلام وأهله، صرباً كانوا أو كرواتاً أو روساً أو هندوساً، مـهـمـــــــا حاولوا أن ينافقوا أو يتملقوا أو يعبثوا فالحقائق أصعب من أن تحجب بمنخل.. ، والوقائع أكــبـر من أن يتلاعب بها كاتب مبتدئ أو صحيفة تطعن من الخلف ، أو متشرق ملأ الشر صدره فبدت الضغينة في فيه وما يخفي صدره أعظم.. وأعظم...

الهوامش :

* هذا العنوان يرمز إلى حقيقة فهم الغرب الصلـيـبـي لأحـــداث البوسنة ومن ثم تغطيتها إعلامياً.. في الوقت الذي نأخذ نحن المسلمين منهم تفاصـيـل الـمـأساة التي لم نحسن حتى متابعتها وكتابة فصولها الحزينة.

1- نيوزويك سبتمبر 1992.
2- واشنطن بوست سبتمبر 1992.
3- واشنطن بوست سبتمبر 1992.

4-نيوزويك 7 سبتمبر 1912.
5- نيوزويك أكتوبر 1992.
6- مجلة تايم 20/7/1992.
7- نيوزويك 24/8/1992 .
8- 12/8/1992 BBC .
9- نيو ستيتمان سوسيتي 31/7/1992 .
10- ونشر هذا في أكثر من مصدر انظر مثلاً الوسط 26/10/1992 .
11- نشرت في 30/8/1992 في الواشنطن بوست .
12- ملليت التركية 12/8 .
13- نيوزويك 5/10/1992 .
14- بات روبتسون - مرشح الرئاسة الأمريكي السابق - 18/9/1992 .
15- مقاتل صربي 22/8/1992 ABC News .
16- المقال لحازم صاغية.. الكاتب العبثي الملفوظ أسلوبياً والعجمي اللويسي فكراًـ وكيف لا يكتب بهذا الأسلوب وهو أرثوذكسي حاقد؟!

مقال

فرنسا والنزعة العنصرية في توجهاتها إلى متى ؟

أحمد عبد العزيز أبو عامر

تمهيد:

كان للمفكرين الفرنسيين الكبار أمثال (مونتسكيو) صاحب (روح القوانين) وجان جاك روسو صاحب (العقد الاجتماعي) وديدرو وغيرهم - مع التحفظ على توجهاتهم - كان لهؤلاء المفكرين دورهم الكبير في إيقاظ شعلة الثورة الفرنسية عام 1789م والتي أصبحت أبرز معالم التاريخ الأوربي المعاصر ، والتي بواسطتها تم التخلص من جبروت الكنيسة وظلم الإقطاع. والتي كان هتافها (الحرية والمساواة والإخاء) وعنها صدر ما يسمى بحقوق الإنسان لأول مرة في التاريخ المعاصر.

إن ما تعيشه فرنسا اليوم من التوجهات العنصرية حيال الوافدين عليها لم يعد مجهولاً بعد أن صار مكشوفاً بما كتب عنه من أبحاث ودراسات وكتابات صحفية متوالية كما سنرى.

والحقيقة أن ما جاء في المثل والقيم الفرنسية التي جاءت بها ثورتهم وتضمنتها قوانينهم لا تتفق وما نتج من ظلم طيلة سنوات استعمارهم لكثير من البلدان الإسلامية حين امتصت خيراتها، وابعدت الحكم بشريعتها، وحاولت بشتى الطرق إشاعة لغتها وفكرها، واصطنعت أطراً فرانكفونية

لتخلفـهـا في سياستها وإشاعة ثقافتها من بعدها والتي ما زالت أمينة على رسالتها وما برحت تتقدم للانتخابات في بلدانها بتوجيهاتها الفرانكفونية.
وخرجت أوربا منهكة القوى بعد الحـــرب العالمية الثانية وتقلص نفوذها لحساب القوتين العظميين (أمريكا والاتحاد السوفييتي الســابـق) لـكـــــن سوء الأحوال في كثير من البلدان العربية وبخاصة دول شمالي أفريقيا ومظاهر الوفرة والازدهار الاقتصادي والتي عرفتها دول أوربــا مـنـذ الستينات دعــــــا كثيراً من سكان تلك الدول إلى النزوح إلى دول غرب أوربا، وبخاصة فرنسا ، حتى وصل عددهم إلى ما يزيد على مليون نسمة في غالبيتهم العظمى من المسلمين.
وهناك فئة سبقتهم للنزوح إلى فرنسا ممن شاركوا في الجيش الفرنسي - جهلاً منهم أو ربما رغماً عنهم - أبان الحرب العالمية الأولى. وهذا التجمع الإسلامي الكبير في السنوات الأخيرة وبعد مد الصحوة الإسلامية نتج عنه وجود أكثر من ألف مسجد وأكثر من 600 جمعـيـــة إسلامية تظهر طابعها الإسلامي ويؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم في باريس بواسطة راديو محلي. بينما لم يكن في بدايات السبعينات أكثر من عشرة مساجد والقليل من الجمعيات المحدودة إذ أن كل الوافدين للعمل هناك في ضياع وعدم التزام بالإسلام.
لكن هؤلاء الوافدين المسلمين يعانون في السنوات الأخيرة أشد المعاناة من النظرة الدونية لهم لا سيما بعد ظهور التوجه الإسلامي فيما بينهم. وبعد ظهور اتجاهات عنصرية يؤججها حزب رسمـي هـــــــو (حـــزب الجبهة الوطنية) بزعامة جان ماري لوبان والذي دخل الانتخابات الفرنسية الأخيرة وحـصــــل على نسبة 14% من أصوات الناخبين ومن أبرز طروحاته طرد كل الوافدين وسحب الجنسية ممن نالها منهم..

المظاهر العنصرية حيال المسلمين في فرنسا:

بعد ظهور ذلك الحزب العنصري يلمس المتابعون كثيراً من المظاهر العنصرية حيال المسلمين تتمثل فيما يلي :
1- ما تنشره الصحف اليمينية من تحقـيـر للأجانب وتخويف وإثارة للرعب من المسلمين الذين يصورون زوراً بأنهم إرهابيين ومعادين للديمقراطية.
2- التخويف من تزايد المسلمين الذين ســتـؤدي زيادتهم في زعمهم إلى أسلمة أوروبا عبر تزايد هجراتهم ، يقول (لوبان): إننا لا نريد أن نعيش في المستقبل الذي نرى فيه الفرنسي يشحذ على أبواب المساجد الفرنسية يوم الجمعة.
3- إصدار قوانين تحد الهجرة! ويقصد بـهــا في المقام الأول المسلمون. بالإضافة إلى ظهور القيود التي تعوق الإقامة هناك.

4 - الغـلـظــــة التي يعامل بها الوافدون في المطارات والموانئ والتي بلغت إلى حد إقامة سجون خاصة للوافدين.
5- المضايقة للملتزمين من المسلمين عند ظهور السمات الإسلامية عليهم ، ولا يغيب عن البال معاناة الطفلتين المسلمتين وطردهما من المدرسة حينما لبستا اللباس المحتشم حتى وصلت مسألتهما إلى المحاكم الفرنسية ، بينما لا يتخذ نفس الإجراء ضد (الراهبات) اللاتي يلبسن نفس اللباس تقريباً.
6- تعريض المهاجرين المسلمين للقتل والاغتيال بصورة بربرية لا يمكن بحال من الأحوال قبولها لتنافيها مع أبسط القوانين السائدة ، ومنها إلقاء أحد العمال من القطار وهو يسير بسرعة وقد حولت قصته إلى فيلم سينمائي أظهر همجية هذا التصرف.
7- طرد العمال العرب المسلمين من المصانع والاستغناء عنهم واستبدالهم بعمال وافدين من أوربا الشرقية.
لم يقتصر هذا التوجــــه العنصري على حزب لوبان فقط ؛ وإنما تعداه إلى بعض المسؤولين الكبار حينما وصل الأمــر برئيس الوزراء السابق (جاك شيراك) إلى الحديث عن المهاجرين العرب المسلمين بأسلوب فج وقبيح حينما اعترض على نمط حياتهم كتعدد الزوجات وكثرة الأطفال وما زعمه من روائح الأطعمة !! والحقيقة أن هذا التصريح لا يعود لتلك الأسباب فقط ، وإنما يعود للطعن فـي الـديـن الـذيـن ينتمون له. وهذا غيض من فيض ، وما تخفي صدورهم أكبر.

أسباب ظهور النزعة العنصرية :

لدارسي هذه الظاهرة عدة توجهات في تعليلها ومنها:
1- ما يعود لخوف أوربا من التزايد المتصاعد في نسبة العرب بالنسبة لأوربا فأوربا حالياً بها 340 مليون نسمة ، في حين يبلغ سكان العالم العربي 225 مليون نسمة وإذا استمرت الحال على ما هي عليه فإن عدد سكان العالم العربي سيفوق سكان أوربا عام 2015 وهذا يشـكـــل عـامـــل يقلق الأوربيين لعدة أسباب أظهرها الانفجار السكاني في الدول الواقعة جنوبي البحر الأبـيــض المتوسط والظروف الاقتصادية والسياسية التي تشجع على هجرة أعداد لا طاقة ولا رغبة لأوربا في استيعابها مما يوجد نفوراً شعبياً بينهما.
2- الزيادة المضطردة لـلـــوجــود غير الفرنسي في فرنسا والذي يرونه يهدد بتغيير الملامح الأساسية لمجتمعهم وكذلك الأسس الثقافية والحضارية التي تقوم عليها فرنسا منذ قرون.
3- ظهور العمال العرب والمـسـلـمـيـن وغـــــالبيتهم من شمال أفريقيا في الاضطرابات التي حصلت في السنوات الأخيرة ، وكانت نقابات العمال

الفرنسية تدفع بالعرب لرئاسة لجان الإضراب فيبدون أمام الرأي العام الفرنسي وكـأنهم جاؤوا إلى فرنسا لكي يخربوا ويدمروا اقتصادها.
4- شعور الفرنسيين بأن وجود هذه الألوف المؤلـفـــة من العمال الأجانب يستأثر بفرص العمل دونهم.
5- التكلفة التي تترتب على وجود العمال الأجانب على الخزينة الفرنسية لصرفها أموالاً لهم للضمان الاجتماعي والصحي والتقاعد تقدرها القوى العنصرية 210 مليار فرنك فرنسي أي حوالي (40 مليار دولار) مع العلم أن هذه التكلفة يدفـعـهـــا العمال الأجانب خلال الضرائب المقتطعة من رواتبهم الشهرية.
6- بـعـد ظـهـــور الصحوة الإسلامية بين العمال المهاجرين وتشبثهم بهويتهم الإسلامية، ورغبتهم في الحـصـول على الوسائل التي تسمح لهم بممارسة شعائرهم وأهمية احترامها ، ما يرونه يعطل العمل في زعمهم.
7- ظهور بعض الجـرائـم التي قد يرتكبها بعض الأجانب هناك ثم هناك عامل الضوضاء فالحياة العربية الإسلامـيــة لها تقاليدها في التواصل الاجتماعي بعكس الحياة الفرنسية المغلقة مما يضايق الفرنسيين. وبالرغم من كون هذا العامل ثانوياً إلا أنه لعب على أرضية الواقع الفرنسي دوراً مهماً في تصعيد المد العنصري ضد العمال العرب.
8- يحمّل كثير من الفرنسيين مسألة تدهور جهات التعليم عندهم لوجود أبناء الأجانب في المدارس الابتدائية ومعظمهم لا يجيدون الفرنسية.

نعم فرنسا عنصرية:

يحاول بعض الباحثين بادعـــاء الموضوعية والظهور بمظهر الليبرالية الكاذبة بأن فرنسا ليست عنصرية كما جاء في كتاب (هل فرنسا عنصرية؟) للأستاذ شريف الشوباشي. والذي لم يجرؤ على القول بهذه الحقيقة وراح يبعد عن الواقع بفلسفة لا مبرر لها. فهو يقول : إن الإجابة بلا فقط أو نعم فقط يظل ناقصاً وغير صحيح. وحينما سأل هل فرنسا عنصرية قال : الإجابة على السؤال لا اعتقد أنها بسيطة لكن إذا نظرنا إلى فرنسا اليوم وخصوصاً في السنوات الثمان أو العشر الأخيرة نجد أن هناك اتجاهاً عنصرياً قوياً. وإن هذا الاتجاه يزيد ويستشري وقد يتبلور في حزب سياسي على الساحة - حزب الجبهة الوطنية - إلى أن قال : إن الذين صوتوا للوبان بنسبة 14% ليسوا كلهم من العنصريين ومن الظلم أن نقول إن المجتمع الفرنسي هو مجتمع عنصري لأن هذه النزعة إنما هي وليدة شبح الأزمة الاقتصادية فهي السبب وراء هذه الظاهرة.
إن الأستاذ الشوباشي في رده لم يكن جريئاً ولم يقل الحقيقة ، فإن ما أوردته من مظاهر عنصرية ضد العمال العرب كالشمس في رابعة النهار وإقرار حزب عنصري من الدولة الفرنسية يتقدم للانتخابات الرسمية هو تكريس بهذا

المبدأ. والجهود الكبرى من الحكومة والشعب الفرنسي لتمويل آلاف المبشرين الذين زرعوا في كثير من الدول الإسلامية للتبشير بالنصرانية بين المسلمين لا يحتاج إلى دليل ، كل هذه التوجهات العنصرية تسود في الوقت الذي وضعت الدولة الفرنسية نفسها من النظم والقوانين ما يحارب العنصرية ويجرمها والعاملين بها ، كما أورد ذلك الأستاذ الشوباشي في أحد فصول الكتاب آنف الذكر.
وحتى نؤكد هذا للقارئ الكريم أورد ما كتبه الباحث الفرنسي (ميشال فيفيوركا) في كتابه (فرنسا العنصرية) وهو حصيلة بحوث ميدانية أجراها الباحث المـذكـــــور مع فريق عمل مؤلف من ستة باحثين حول المشاكل التي يواجهها المجتمع الفرنسي اليوم خصوصاً على المستويين الاجتماعي والثقافي حيث أوضح الكتاب نزوع المجتمع الفرنسي نحو العنصرية ليس على ضوء نتيجة حزب الجبهة الوطنية العنصري فقط وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يغوص في الأسباب والدوافع من خلال رصده لبعض أوجه الحياة الاجـتـمـاعـيـــة الفرنسية السائدة في مناطق فرنسية توجد فيها نسبة مهمة من المهاجرين حيث تطفو ملامح الأزمة العنصرية أكثر من أي مكان آخر ، وهذا ما تعبر عنه آراء العديد مــن الفـرنـسـيـين الذيـن ألــتـقى الباحث وزملاؤه بهم ، ومن المناطق الساخنة التي تشهد تعاظم الصراع بين الفرنسيين والأجــانـب عـــلـى ســبـيل المثال كلاً من (روبيه ومورس ومارسيليا ومونفرماي وسيريجي). وبعد أن أرجع أسباب ظـهـور النزعة العنصرية إلى أسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية قال بأنها دفعت إلى الصراع الـداخلـي الـــذي تعيشه فرنسا حالياً ، ويتمثل في النزعة العنصرية من الفرنسيين ضد المهاجرين وبالتحديـــد حيال القادمين من دول المغرب العربي ومن دول أفريقيا الأخرى. ثم تحدث عن وجود العنصرية اللفظية والتي أذكر منها أقوال الفرنسيين التالية: (يجب أن لا ندخل الأمكنة الـتـي يوجد بها مغاربة!) ، (وإنهم كالحيوانات لا يتغيرون!) ، (عاداتهم غريبة ومتوحشة)! مـمــــا يعكس مدى الحقد على الآخر. ودعوتهم للتخلص من الأجنبي بأي ثمن لا سيما وأنهم يرون أن الأجانب هم الذين وراء الأزمات الاقتصادية وتزايد العاطلين. ومما يجدر ذكـره أنــه ســبـق أن صدر للمؤلف (فيفيوركا) كتاب سابق بعنوان (فضاء العنصريـــة) ويعـتـبر كالجانب النظري لكتاب (فرنسا العنصرية) والكتابان يعكسان اهـتـمــام المثقفين الفرنسيين بمعالجة هذه المشكلة ، وينطويان ولا شك على إدانة لمختلف أشكال العـنصرية التي يعتبرها المؤلف مرضاً يهدد المجتمعات ومدى قدرتها على الاستمرار.

المراجع :

1- هل فرنسا عنصرية لشريف الشوباشي.
2- دراسة الإسلام المهاجر في الدولة القومية (الحياة من 10700-10702).

3- الشرق الأوسط 4982 ، 4933.
4- مجلة الشروق العدد 16.

مقال

من الرجعية إلى الأصولية (1)

محمد بن حامد الأحمري

يهتم العالم الغربي في هذه الأيام بالظاهرة الإسلامية - التي يسمونها: الأصولية - اهتماماً لم يسبق له مثيل ، وقد كان مؤتمر المتخصصين في دراســات الشرق الأوسط الذي عقد في مدينة بورتلاند ، ولاية أوريجون في الغرب الأمريكي لمدة أربعة أيام بدأت يوم 2 جمادى الأولى 1413هـ (28 أكتوبر 1992م) ينبئ عن تحكم هاجس الإسلام بالعقول الغربية ، إذ أصبح اهتماماً شاملاً للمتخصصين ، وخطراً قادماً يجب وعيه والاهتمــام به لاستدراجه ، أو كبته ، أو تدميره ، أو التفاهم معه إذا أمكن ذلك.

وقد حضر المؤتمر أكثر من ألف وأربعمائة متخصص من المهتمين بالعالم الإســلامي والمشرق العربي ، وحضره بعض السفراء والمثقفين العرب. وكان أهم أعمال المؤتمر ما يزيد عن مائة ندوة شارك فيها قرابة خمس مائة متحدث ، ومحاضرات ، وعرض للكتب. وكــان أهم ما اهتـم بــه المؤتمر من الموضوعات : موضوع العصرانية وتحديث المجتمعات الإسلامـيــة ، وقضايا المرأة المسلمة حيث حظي هذا الموضوع باهتمام كبير ، وشارك فيه نساء عربيات من مختلف الأقطار العربية ، وكذلك موضوع الوحدة اليمنية كان محل اهتمام المؤتمر.

وبرز في المؤتمر الجانب السياسي كقضية هي هم وعمل معظم الدارسين للمنطقة ، حيث لم يعد الاستشراق كتخصص معرفي موجوداً اليوم، وإن وجد فإنه في الحقيقة يأتي على هامش العمل السياسي الاستعماري لهؤلاء الدارسين ، وهو أمر ليس هذا موضع الحديث عنه. وإنما المهم أن هذا الانتباه والخوف الشامل من الإسلام أخرج عدداً من الكتب التي اهتمت بدراسة الإسلام وبوعي التيارات التي تحرك الحـيـاة الثقافية والاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي ، وتدرس عوامل نجاحها أو فشلها وأسباب قيامها وأثرها اليوم في الحياة المعاصرة.

وكان الكاتب »جيل كيبل« من الذين أبدوا اهتماماً بارزاً بهذا الموضوع منذ كتابه الأول »النبي والفرعون« إلى كتابه الأخير »يوم الله« عن الحركات الأصولية والمعاصرة في الديانات الثلاث(1)..

يذكر »كيبل« أسباب العودة إلى الدين في الديانات الثلاث : الإسلام والنصرانية بشقيها : الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، والديانة اليهودية ، ويعيد سبب هذه الأصوليات إلى فشل المشروع التحديثي العلماني(2). »إذ هذه الحداثة لم تؤد إلى إنكار أو تحطيم كل الحضارات الأخرى فحسب ، بل أدت أيضاً إلى إفقار الحضارة الغربية ذاتها حين تركت بُعد المجتمع يصاب بالضمور باسم فرديتها ، وتركت بعد الإنسان المتعالي يضمر باسم وضعيتها.. وهذا التصور للعلمانية قد أدى إلى هزيمة الغرب أخلاقياً(3). ثم يلاحظ »كيبل« وجود تشابه في بعض هذه التوجهات عند المتدينين ، ويرى أن أهم ملامح هذا التشابه : »أن هذه الحركات الدينية هي على العموم حركات تعارض الخطاب الغالب في الدين الرسمي وتخرج عليه وتسرع إلى تجريمه.. وتأخذ هذه الحركات بكافة على المجتمع تفتته ، وفوضاه وبعده عن الجادة وافتقاره لمشروع متكامل يؤمن به وينتسب إليه.. وتعتبر أن حداثة ينتجها عقل بدون الله هي حداثة لم تستطع في النهاية أن تولد قيماً(4).. وتمتلك هذه الحركات قدرة خاصة على الإشارة إلى اختلالات المجتمع(5) ، وفي الديانات الثلاث هناك مجموعات لا تحاول الاستيلاء على السلطة ، ولا تفكر بها ، وتكتفي بجانب التقوى كمجموعة الهبة اللدنية في الكاثوليكية والبروتستانتية ، وجماعة اللوبافيتش اليهودية ، وجماعة التبليغ عند المسلمين ، فهذه جماعات تدعو إلى التقوى والتجربة الدينية الشخصية(6) ولا تهتم بأبعد من ذلك.

يقابل ذلك التيارات التي تحمل برنامجاً بديلاً كالحركة الإنجيلية والأصولية الأمريكية التي كان أول رجالها المعمداني جيمي كارتر ، والذي جاءت به الكنيسة إلى الحكم ليكفر عن خطيئة ووترجيت. ثم تلاه ريغان ، الذي هاجم نظرية داروين المدمرة للأخلاق ، وهاجم نظام التعليم العلماني ، وطالب بتدريس وجهة النظر الكنسية في قصة الخلق بديلاً ، وزعم بأن الله اختار أمريكا واختار مكانها البعيد لتكون مكاناً للإيمان والحرية يهفو إليه من يحب الإيمان والحرية ، وقال أمام جمعية الإنجيليين القومية إنه سيجعل من عام 1983م عام الكتاب المقدس(7).

ثم تلاه بوش على نفس القاعدة المتطرفة دينياً وله تاريخه المعروف في هذا(8) ، وليلة سقوط بوش فى الانتخابات صرح أحد أنصاره بخطر قيام حرب أهلية بسبب فوز الديمقراطيين ، حرب بين المتدينين المحافظين ومخالفيهم.

ومع أن هذا التصريح مبالغة ولكنها إشارة ذات معنى. ويعرض أمثلة من إيطاليا وغيرها عن الحركات الدينية السياسية في العالم الكاثوليكي ولكنه يقف طويلاً عند حركة »التضامن« البولندية وأثرها في إسقاط الحكم الشيوعي في بولندا ، وأثر البابا يوحنا في هذه القضية مشهور ، وأيضاً تلك الحركات الدينية التي كانت تعمل في روسيا وأوربا الشرقية ، وساعدت على نهاية روسيا.

ومن الحركات اليهودية السياسية المهمة حركة غوش أمونيم التي تأسست عام 1974م إثر استعادة مصر لأجزاءٍ من سيناء ، وهذه الحركة مع حركات وأحزاب دينية صغيرة لعبت دوراً مهماً في تشكيل الحكومات اليهودية ، وكانت هذه الأحزاب الدينية موازناً مهماً بين المتنافسين ، كل منهم يسعى لرضاها وينفذ برنامجها حتى يكسب أصواتها ، مما أهلها لتأثير ديني في المجتمع اليهودي أكبر من حجمها الواقعي.
ويرى أن بعض القضايا أضعفت مواقع العلماء في باقي أرجاء العالم الإسلامي السني مثل قضايا عدم استقلال الأوقاف والحبوس وقضية إصلاح التعليم الذي تحول بالأزهر إلى أن أصبح آلة دعائية للحكم القائم أو مسألة وسطية العلماء في المواقف من تهدئة الأمة ونصح الأئمة والتحذير من الفوضى والفتنة ، وظاهرة مهمة أخرى وهي ظاهرة الانفصال بين العلماء وشباب الدعوة(9).

مصطلح الأصولية :

ومن القضايا التي تستحق الاهتمام هنا الإشارة إلى أن المصطلحات المستعملة في الحديث عن النهضة الدينية في العالم الإسلامي ، قد نُظر إليها من خلال منظار غربي خالص يبدأ باستعمال المصطلحات والألقاب الغربية التي سميت بها حركات دينية نصرانية ، فيسمى المسلمون بنفس التسميات ، وهذه عملية مغالطة شنيعة في رأي الكاتب ، إذ إطلاق كلمة أصولية على الوعي الإسلامي المعاصر زيادة في التشويش وعدم الإدراك للمطلوب فهمه ، إذ أن النظرات الغربية أو القوالب الغربية الجاهزة التي يوضع فيها العالم الإسلامي لا تمكن الغربيين من فهم ما يحدث فيه.
وإطلاق كلمة أصولية ذات المعنى المحدد في الذهن الغربي على أصحاب الفكر الإسلامي لا يدعو إلى فهم ما يحدث في العالم الإسلامي. وهو يطالب بعدم استعمال المصطلح الغربي نفسه حتى لا يلقي الواقع الديني النصراني بظله فوق موضوع الدراسة »الإسلام«. وفي الحق ؛ إن مما يثير الاستهجان استعمال هذه الكلمة ذات الدلالة المحددة في الإنجليزية ابتداءً وفي الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية في وصف حالة أخرى مغايرة هي العالم الإسلامي.
ولكن الذي يجب وعيه هنا أن الحركة المضادة للإسلام غير قادرة حتى على إيجاد مصطلحات تصنف بها ما يحدث على أرضها ، فهي لا بد أن تترجم بحرفية ساذجة ذلك المصطلح الغريب الذي لا يعني في لغتها وثقافتها شيئاً محدداً ؛ بل لا يعني بأي طريق المعنى الذي يراد إلصاقه أو لمز المسلمين به ، فهل يعني عندنا النسبة لأصول الفقه ، أم لأصول الإسلام ، أم ماذا؟!
يحدثنا الكاتب عن جذور هذا المصطلح فيقول : »يؤرخ للظهور العمومي لمصطلح سلفية(10) أصولية Fundamentalism على وجه العموم بسنوات(11) العشرين ، وقد ظهر على أثر نشر سلسلة من 12 مجلداً انطلاقاً من عام 1910 في الولايات المتحدة تحت عنوان الأصول ، تضم تسعين مقالة ، حررها

مختلف اللاهوتيين البروتستانت المعارضين لكل تسوية أو حل وسط مع الحداثة المخيّمة ، وقد نشرت هذه السلسلة التي مولها شقيقان كلاهما من رجال الأعمال ووزعا منها ثلاثة ملايين نسخة مجاناً. غير أن ما أدخل سلفية »أصولية« في المصطلحات الأمريكية الجارية وأعطاها في ذات الحين دلالة مختلفة عليها هي قضية »سكوبس« فقد كان جان ت. سكوبس أستاذ علم حياة شاباً يعمل في ثانوية حكومية في ولاية تينيسي ، واستخدم في التدريس كتاباً يرجع ويميل إلى تطورية الأجناس. وهو أمر كان ينتهك قوانين الولاية التي كانت تحظر تعليم كل نظرية تنكر رواية الخلق الإلهي للإنسان (12) ، وقدم الأستاذ إلى المحاكمة عام 1925م. لكن قضيته أصبحت قضية عالم الثقافة الأصولية الأمريكية(13). واشتد الصراع فيما بين أنصار الداروينية أو أهل الحداثة أو التحرر وبين البروتستانت الذين يرون عصمة الكتب المقدس ، وانقسم المجتمع الأمريكي في فترة ما بين الحربين العالميتين إلى معسكرين متناحرين : قسم محارب للدين ، وآخر محارب للحداثة. كان التحديثيون في الشمال الصناعي ، وكان المتدينون في الجنوب الزراعي ، وكانت الجولات الأولى سجال كسب فيها المتدينون وحرموا الخمور ابتداء من عام 1919م إلى عام 1933م ، ثم خسروا في مراحل بعد ذلك ، إلى أن جاء كارتر وريغان الذي نادى في زمنه بأن تكون مبادئ الكتاب المقدس شريعة المجتمع«(14) ثم بوش صاحب النظرية الدينية في الاهتمام بالعائلة والفرد وإصلاحه وخلاصه من الخطيئة الأولى ، وهذا التفكير النصراني يحل له مشكلة الضعف القيادي والمشكلة الاقتصادية ، ولم يشفع له كل ندائه البروتستانتي ولا كل القساوسة الذين جمعهم حوله. فهل هذه نهاية مؤقتة للحركة الإنجيلية هنا؟ لا يبدو ذلك الآن على الأقل ، فإن المتدينين يزيدون ، والعلاج العجائبي بالرموز والتهويمات »سحرة متدينون ، كهان« يزيد بالكتاب المقدس.

والجامعات الدينية المتخصصة تفتتح ، وبرامج التلفزيون والإذاعة تتزايد ، وفي عام 1985 كان للكنيسة 18 ألف مدرسة تضم مليونين ونصف مليون طالب. وتعلن الكنيسة عن مشاريع سنوية ، تطالب في كل سنة بإنقاذ مليون روح لصالح الكتاب المقدس ، أي دفع هذا الرقم إلى حظيرة الكنيسة.

ويعقب الكاتب بأن ما تملكه الكنيسة الإنجيلية الأمريكية من أجل نجاح مشروع الدعوة الدينية في أمريكا أعظم بما لا يقاس من وسائل الآخرين - المسلمين والكاثوليك واليهود - لأنها تمتد من أقنية التلفزيون إلى الجامعات(15).

من الرجعية إلى الأصولية :

تلك كانت قصة المصطلح : »أصولية« ، مصطلح أمريكي خالص ، وهذه حقيقة تاريخية لحياة الفكر المهزوم والمنهار والذي لا يصنع كلماته بل يستعملها كما لُقِّنها أو ترجمت له ، فهو ليس قادراً على إبداع شكليات ثقافة خاصة به.

وحين كانت الحركة الشيوعية وأدعياء اليسار تعيث في العالم الإسلامي كان لا

بد من استخدام مصطلحات الرجعية والتآمر تعريضاً بالإسلام ورسوله وكتابه وموافقة لماركس وحواشيه في العالم كله. وباسم الرجعية ومحاربتها حوربت الحريات والمقدسات ، وغيبت الأمة عن حقوقها وثقافتها ، وعاشت نهباً لكل الصرعات اليسارية التي ما أثمرت إلا هزائم وويلات ومجاعات وحروباً خاسرة ومجتمعات تخلفت وزادت تبعيتها باسم الاستقلال والتقدمية.
فهل يراد باستخدام مصطلح : الأصولية هتك حريات الشعوب وكرامتها وإذلالها ومحاربة إســـــلامها أغلى ما تملك؟ الذي يلوح في الأفق أن المصطلح الذي تنفخ فيه أجهزة الإعلام وتهّول بـــه في العالم ربما يؤدي إلى مواجهة شاملة مع الإسلام يخسر فيها أعداء الله بإذن الله.
وعقدة المشنعين على الإسلام باسم الأصولية تنطلق من مبدأ السيادة السياسية لدولة كبرى، فإنها في حـــــال قوتها لا ترضى بفكرة تخالف فكرتها السائدة فالمحارب للإسلام بإضفاء صفة الأصولية على العاملين له إما أن يكون حاملاً لفكرة تحارب الإسلام وتضاده مباشرة؛ أو أن يكون ممثلاً ووكيلاً للفكرة السائدة ، وهو في الحالة الثانية أخطر ، لأنه ليس أصيلاً فـي تفكيره ، وليس عاقلاً في تعامله ، فهو يفهم دوره أنه لا بد أن ينفذ المطلوب كما يريد السيد، بلا وعي، ذلك أنه لا خيار عنده، إما الغرب ؛ أو الأصولية. وبهذا ندرك الهوس الذي يلف عالم اليوم ومؤتمرات المستشرقين : إما الغرب أو الإسلام ، لا أنصاف حلول.
وقد جاء كتاب جون إسبوستيو: »التهديد الإســـلامي أسطورة أم حقيقة«(16) موضحاً القلق الأمركي تجاه الإسلام خاصة ، والذي بدأ بالإعــلان **إثر سقوط روسيا عن عدو جديد أشد خطراً من الشيوعية ألا هو الإسلام** ، وسيكون هــذا الـكـتاب وكتاب جارودي في الأصولية المعاصرة وأسبابها موضوع حلقة قادمة بإذن الله...

الهوامش :

1- ترجمة نصير مروة دار قرطبة ، قبرص 1992.
2- يوم الله ، ص 11.
3- جارودي ، الأصولية ، ص 23.
4- المصدر السابق ، ص 12.
5-6 المصدر السابق ص 13.
7- المصدر السابق ، ص 132-133.
8- كتاب »God in the white house« »الإله في البيت الأبيض« تحدث عنه بتفصيل كتاب »Under God, Relegion and American Politics« تحت الإله والدين والسياسة الأمريكية. وكتاب النبؤة والسياسة وكتاب البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني لـ د. يوسف حسن وله أيضاً كتاب أوراق واشنطن.

9- ص 40-41.
10- لعل كلمة سلفية من المترجم عن الفرنسية؟
11- يعني عقد هنا.
12- يعني كان القانون حرم تدريس نظرية داروين.
13-14 المصدر السابق ص 118-119 ، و 136.
15- المصدر السابق ص 145.
16- The Islamic Threat Myth or Reality

منتدى القراء

ولكنكم تستعجلون

فايز سعيد

روى البخاري وأبو داود والنسائي عــن خـبـاب بن الارتّ -رضي الله عنه- قال : شكونا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو مـتـوســدّ ببـرد لــه في ظل الكعبة ، فقلنا: ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا؟ فقال : »قد كان من قبلكم يؤخذ الـرجـل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصدّه ذلك عن دينه... والله ليتمنّ الله تعالـى هــذا الأمر حتى يـسـيـر الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.. ولـكـنـكــم تستعجلون«(1).

»لكنكم تسـتـعـجـلون« ما أحسن الكلمة ، وما أجمل العبارة ، وما أروع هذا البيان.. لقد كان لها وقع كبير في قلوب المستضعفين في كل زمان ومكان.

»لكنكم تستعجلون« اسـتـدراك عجـيـب مـنــه -صلى الله عليه وسـلـم- لـيـخـبـر الصالحين والمصلحين أن الصبر هو الوسيلة العظمى والزاد النافع لهم في طريقهم الطويل الـصـعـب ، الـشــاق الوعر.. ذاك الطريق - الاستقامة على شرع الله والدعوة إليها - المليء بالأشواك والعقبات.

أخـبـــرهـــم - عليه الصلاة والسلام - أن النصر والفتح وهداية الناس بيد الله وحــــده، وانتظارهما من قبل الجماعة المسلمة ليس صحيحاً ، وليس من الطموح والهمم العالية ، بل هو من الاستعجال.. الاسـتـعـجـال الذي هو أكبر خطأ يقع فيه المستقيمون والمصلحون ، أياً كانوا.. حيثما وُجدوا.

وذكرهم - عليه الصلاة والسلام - بمن سبقهم من المستضعفين ، ليكون لهم زاداً في طريقهم الـمـتـُعب ، ويسليهم حتى يعلموا أن هناك من صبر أكثر منهم ، وبشرهم ووعدهم حتى لا ييأسوا من العاقبة... والعاقبة للمتقين.

والله عـــز وجـــــــل لم يعد الجماعة المسلمة في العهد المكي بالنصرة وحسن العاقبة ، حتى يتربّوا تربية إسلامية فدائية فذّة ، تلك التربية التي

مضمونها التضحية والتفاني في سبيل الله وحده والتجرد من أهداف الدنيا ، والتطلع إلى ما هو أعلى من ذلك.. إلى ما عند الله ((ومَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ)) .
يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله -: »إنه من واجب الدعاة أن يمضوا ولا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله ورحمته.. هذا هو الهدف الحقيقي، وهذه هي الغاية ، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم ، وأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم ، إنما هو دعوة الله التي يحملونها«.
ولنا في أنبياء الله - علـيــهم الصلاة والسلام - أسوة حسنة ونماذج خيرة..
فهذا نبي الله نوح - عليه الـســلام - لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، طوال هذه السنين وهو يدعو قومه ليقـولـــوا: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) ، وفي النهاية ((ومَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ)) قيل : اثنا عشر رجلاً وامرأتان فقط!
فعـلـى الـصــالحين والدعاة والمصلحين أن يصبروا ، ويواصلوا مسيرتهم الربانية دون فتور وكسل ، ودون خمول واتكالية ، وأن يستمدوا غذاء دعوتهم من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.
قال تعالى : ((وبشر الصابرين الذين إذا وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَذِينَ إذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُوْلَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ)) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

الصفحة الأخيرة

كيد الشيطان

عبد القادر حامد

الناظر إلى الجهود التي تبذل من أجل وقف المد الإسلامي، وكـبـت إحـسـاس الـمـسـلـمين بذاتهم - وبخـاصــة جـيـــل الشـباب الذين هم أجيال المستقبل - يُخَيَّل له أنه أمام سيل جارف يحاول بعض الناس المذعورين وقفه ببناء سد هنا، وسد هناك، أمامه ، أو بمحاولة تحويله إلى حيث ينجون ومن يعولون من مدِّه. وهم في جهودهم المضاعـفـة اليائسة ، والتي لا تخلو من مهارة وقوة وحسن تصرف عند مداهمة الخطر؛ يغيِّرون ويبدلـون من خططهم، ويجربون هذا الأسلوب ، بعد أن فشلت الأساليب قبله ، ويستعينون بالخـبـرات المتراكمة عبر التاريخ عند هذه الأمة أو تلك ، وعند هذا الطاغية العاتي ؛ أو ذلك العتل الجبار.. ومــع كل ذلك يكسح السيل الجارف ما يوضع في طريقه ، فما إن تسد ثغرة إلا وتـنـفـتــح ثغرات ، وما إن يقام رَدْمٌ إلا وتنهدم رُدوم.

يـجـب أن نعـتـرف بمواهب وصبر المذعورين من المد الإسلامي. وقدرتهم على الاستنفار في ساعات الفزع، مــع اعـتـرافـنـا أيضاً بما لهم من مدد ومساندة تأتيهم من أولياء الشيطان ، ولكن حريٌّ بالمسلم أن لا ينسى حقـيقـة بسيطة هي من صلب عقيدته ، وهي ضعف الباطل مهما علا ، وهشاشته مهما تضخّم، ((إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)).
متى تتساند جهود العرب المسلمـيـن كي لا يظل مناخ بلادهم الاجتماعي يشبه مناخ بلاد البنغال الطبيعي ، حيث قضي علــى الناس هناك أن يُقَطِّعوا أعمارهم بين إصلاح وترميم آثار جائحة سابقة ؛ وترقب هجوم وحلول جائحة لاحقة؟!

تمت بعون الله والحمد لله
